الجزء الثاني		المجلد الثلاثون

مجلة المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥٥		٨ شعبان سنة ١٣٧٤

جرير

— ١ —

هو أبو حَزْرَة جرير بن عطية بن الخَطَفَى ، واسم الخَطَفَى حُذَيفة وانما لقب بالخطفى لقوله من أرجوزة :

« وعَنَقاً بعد الرسيم خَيْطَفا [١] »

ينتهي نسب جرير الى كليب بن يربوع ، وكليب ويربوع بطنان من تميم إحدى قبائل العرب المضرية . وأم جرير أم قيس بنت معيد من بني كليب ، فهو كليبي من أبويه .

ولد جرير باليمامة من نجد حوالي سنة ثلاثين ، وحملتْ به أمه سبعة أشهر ، وعيَّره الفرزدق ذلك بقوله :

« وأنت ابن صغرى لم تتم شهورها »

(١) نقائض جرير والفرزدق ج ١ ص ١ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤١ . والخيطفة : السرعة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونسج الرواة حول تسميته بجرير خبراً رواه صاحب الأغاني [1] وهو : « رأت أم جرير وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه ، حتى فعل ذلك برجال كثير . فانتبهت فزعة ، فأوّلت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاماً شاعراً ذا شرٍ وشكيمةٍ وبلاءٍ على الناس . فلما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنه خرج منها . والجرير : « الحبل » وكانت ترقصه وهو طفل بقولها :

قصصتُ رؤياي على ذاك الرجلْ فقال لي قولاً وليتَ لم يقلْ

لتلدنّ عضلةً من العضلْ ذا منطقٍ جزلٍ إذا قال فصلْ

مثل الحسام العضب ما مسّ قصلْ بعدل ذا الميل ولمَّا يعتدلْ »

أما أبوه عطية فلم يكن ذا شأنٍ يذكر ، بل وصفوه بالمهانة والشح ، ورووا أن جريراً كان عاقاً له ، وأنه كان يقول الشعر ولكنه لم يشتهر به ، ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص ٢٩٧ وروى صاحب النقائض شيئاً من شعره [2] .

وأما الخَطَفَى جد جرير فقد كان يقول الشعر أيضاً ، ولقب كما تقدم ببيت قاله من أرجوزة ، وكان أعلى شأناً من عطية لم يرمَ بما يعيبه ، بل كان حفيده جرير يفخر به على الفرزدق قال :

بنى الخطفى حتى رضينا بناءه فهل أنت إن لم يرضك القينُ قاتله [3]

وذكر محمد بن حبيب أن الخطفى كان ذا مالٍ كثير .

وأما كليب — القبيلة التي ينتسب اليها جرير — فلم يكن يفخر بها لقلة ما ثرها ، ولم يذكرها في شعره إلا قليلاً قال :

(١) الأغاني ج ٨ ص ٤٩ .
(٢) النقائض ج ١ ص ٢٠ .
(٣) ديوان جرير طبعة الصاوي ص ٤٨٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ويرمي نضالاً عن كليبٍ جريرها » (١)

بل كان يتخطاها الى يربوع فيفخر بها في مواضع كثيرة من شعره .

نشأ جرير باليمامة نشأة بدوية ، فكان يرعى الغنم لأبيه ، وقال الشعر في حياة أبيه وجده . ورد في النقائض (٢) أن أول شعر قاله جرير أرجوزة يهجو بها غسان السليطي أولها :

« لا تحسبني عن سَليط غافلا »

وقال محمد بن حبيب بل إن أول شعر قاله قصيدة مطلعها :

ألا حيِّ رَهبى ثم حيِّ المطاليا فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا

وهي عتاب لجده الخَطَفى ، وذلك أنه استنحله من ماله ـ وكان ذا مالٍ كثير ـ فقال أنحلك كما نحلت عميك عطاءً وحزاماً ، وكان ينحل كل واحد من بنيه ربع ماله ، وكان الربع في هذا العام قليلاً ، فتسخطه جرير وقال : قد صرتُ شيخاً من بنيك وأبا عيال ، وعاتبه واستزاده فلم يزده ، وفي تلك القصيدة يقول جرير :

فردي جمال الحي ثم تحمَّلي فما لك فيهم من مقامٍ ولا ليا

وإني لمغرورٌ أعلل بالمنى لياليَ أرجو أن مالك ماليا

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجةٌ فإنْ عرضتْ أيقنتُ أن لا أباليا

وكان ذلك في خلافة معاوية ، لأن يزيد بن معاوية تمثل بأبيات منها أمام أبيه . أما أبياتها الأخيرة التي يهجو بها الفرزدق فقد روي أن جريراً ألحقها بالقصيدة بعد عشرين سنة .

وظل جرير غير مشهور حتى وقعت المهاجاة بينه وبين الفرزدق في أواخر أيام

(١) ديوان جرير ص ٢٩٤ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ .

معاوية ، وروي أن جريراً قدم على يزيد في خلافته فاستؤذن له مع الشعراء ، فأمر يزيد ألاّ يدخل عليه شاعر إلا من عرف شعره ، فقال جرير قولوا له أنا القائل :

فردي جمال الحي ثم تحمَّلي   فمالك فيهم من مقامٍ ولا ليا

الأبيات ... وكان يزيد عاتب أباه بهذه الأبيات ونسبها الى نفسه لأن جريراً لم يكن شعره شهر حينئذ . فأمر بإدخاله ، فلما أنشده قال يزيد : لقد فارق أبي الدنيا وما يحسب إلا أني قائلها . وأمر له بجائزة وكسوة [1] . على أنه ليس في ديوان جرير المطبوع شيء مدح به جرير يزيد بن معاوية .

ولم يروَ عن جرير بعد ذلك أنه اتصل بأحد من الخلفاء أو عمالهم الى أن وفد على الحكم بن أيوب الثقفي ابن عم الحجاج وزوج أخته وخليفته على البصرة ، فمدحه بأرجوزة يقول فيها :

... حتى تناهين الى باب الحكمْ   خليفة الحجاج غير المتهمْ

فأعجبه ظرفه وشعره ، فكتب الى الحجاج انه قدم عليّ أعرابي شيطان من الشياطين ، فكتب اليه أن ابعث به إليّ ، ففعل ؛ فقدم جرير على الحجاج فأكرمه — ولجرير عدة قصائد يمدحه بها — وقدمه الحجاج الى عبد الملك بن مروان بدمشق مع ابنه محمد بن الحجاج ، فحجبه عبد الملك — وكان لا يسمع من شعراء مضر لأنهم كانوا زبيرية — فشفع له محمد وقال إنه لم يكن من والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه ، وما زال به حتى أذن له وسمع قصيدته وأجازه عليها وهي التي يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطونَ راحِ

ولجرير في عبد الملك عدة قصائد أيضاً . ومنذ ذلك الحين أصبح من شعراء

(١) الأغاني ج ٨ ص ٥٠ .

بني أمية يفد على خلفائهم ويمدحهم واحداً بعد واحد، فقد مدح بعد عبد الملك أبناءه الأربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشاماً؛ ومدح عمر بن عبد العزيز كما مدح طائفة من أمراء بني أمية وولاتهم .

وربما كان أعظم حوادث حياته المهاجاة التي وقعت بينه وبين الفرزدق واستمرت نحواً من خمسين سنة، وكان يناصر الفرزدق جيش من الشعراء يتجاوز عددهم الأربعين، فصمد لهم جرير وحده وأسقطهم واحداً بعد واحد، ولم يثبت له إلا الفرزدق والأخطل .

وكان لجرير إخوة ذكر منهم عمرو وكان أكبر من جرير ويقول الشعر، وأبو الورد وحكيم وقد ذكرهم جرير في شعره . قال صاحب الأغاني[1] : أما أبو الورد فكان يحسد جريراً فذهبت لجرير إبل فشمت به أبو الورد، فقال جرير :

أبا الورد أبقى الله منها بقيةً كفت كلَّ لوّامٍ خذولٍ وحاسدِ

وقال يعاتب حكيماً وعَمْراً :

رأيتك يا حكيم علاك شيبٌ ولكن ما لحلمك لا يثوبُ[2]
وعمرٌو قد كرهت عتابَ عمرٍو وقد كثر المعاتبُ والذُّنوبُ

وقد ماتا قبله فرثاهما بقوله :

خليليَّ كم من زفرةٍ قد رددتها ومن ظلمةٍ وارتْ عليَّ ضحى حَجْرا[3]
إذا ما دعا قومٌ عليَّ أخاهمُ دعوتُ فلم أسمع حكيماً ولا عَمْرا

وزوجات جرير : أم حزرة وهي خالدة بنت سعد بن أوس من بني كليب ،

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٥٠ .
(٢) ديوان جرير ص ٣٨ .
(٣) ديوان جرير ص ٢٢٢ .

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

كان جرير يحبها كثيراً ويتغزل بها [١] ، وتوفيت قبله ودفنت بنفخ بُلَيه [٢] فرثاها بقصيدة من حر الشعر مطلعها :

لولا الحياء لعادني استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يزارُ [٢]

وكان جرير يسمي هذه القصيدة الجوساء لذهابها في البلاد [٢] .

ومن زوجاته أمامة بنت عمر بن حرام من بني كليب ، ولدت له من البنين عكرمة وموسى ، ومن البنات موفية وجَبَلة وزبداء وجُمادة [٤] . وكان يتغزل بها أيضاً من ذلك قوله :

ودّع أمامة حان منك رحيلُ إن الوداعَ لمن تحب قليلُ

وذكرها في عدة مواضع من شعره . ومن زوجاته زرة الديلمية كانت تكنى بأم حكيم ولدت له بلالاً ونوحاً وهي مولاة ديلية ذكرها في شعره فقال :

إذا عرضوا ألفين فيها تعرضتْ لأم حكيمٍ حاجةٌ في فؤاديا [٥]

لقد زدتِ أهلَ الري عندي ملاحةً وحببت أضعافاً إليَّ المواليـا

وورد ذكرها أيضاً في ص ٢٢٠ من الديوان . وورد في ص ٥٠٠ من شرح النقائض أن له امرأة اسمها سلمى ولم يزد على ذلك في تعريفها . وقد ورد ذكر سلمى في شعر جرير كثيراً من ذلك قوله :

ألما على سلمى فلم قرّ مثلهـا خليلَ مصافاةٍ يُزارُ ويمدحُ

أما أولاده وأولاد أولاده فقد بلغوا في حياته عدداً كبيراً حتى كاد جرير يخطئ في إحصائهم قال :

---

(١) انظر ديوان جرير ص ٦٠ و ٢٥٣ و ٣٦٧ و ٤٤٩ و ٦٩٦ .
(٢) ديوان جرير ص ٢٠٠ .
(٣) ديوان جرير ص ١٩٩ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٣ .
(٥) ديوان جرير ص ٥٩٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهم لم تُحصَ عدتهم إلاَّ بعدّادِ (١)
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيةً لولا رجاؤك قد قتّلْتُ أولادي

ذكر من البنين منهم حزرة ، ولعله أكبر أولاده لأنه كان يكنى به فيقال له أبو حزرة ، ذكره في شعره فقال :

يا حَزْرَ أشبهْ منطقي وأجلادْ وكَرّيَاني الأمر بعد الإيرادْ (٢)
وعدوتي في أول الجمع العادْ وحسبي عند بقايا الأزوادْ
وحبي الضيف الى جنب الزادْ

وأم حزرة خالدة بنت سعد ، وكان حزرة شاعراً قال جرير :

فإن لآخر الشعراء مني كما للأولين من النكالِ (٣)
مواسم ما بقيت لهم وبعدي مواسم عند حزرة أو بلالِ

ومنهم سوادة توفي قبل جرير بالشام ورثاه بقصيدة أولها :

قالوا نصيبك من أجر فقلتُ لهم من للعرين إذا فارقتُ أشبالي (٤)

ومنهم نوح وبلال وأمهما ديلمية وكلاهما شاعر مقل (٥) ، قال جرير بذكر بلالاً :

إن بلالاً لم تشنه أمُّهُ لم يتناسب خاله وعَمُّهُ (٦)
يشفي الصداع ريحه وشمه ويذهب الهموم عني ضمه
كأن ريح المسك مستحمه

(١) ديوان جرير ص ١٥٦ .
(٢) ديوان جرير ص ١٣٩ .
(٣) ديوان جرير ص ٤٢٦ .
(٤) ديوان جرير ص ٤٣ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٥٩
(٦) ديوان جرير ص ٥٣٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن بلالاً هذا خرج عاقاً لأبيه ، وقد ترجم له ابن عساكر في التاريخ الكبير [١] وروى شيئاً من شعره وذكر أنه ولي بعض الأعمال في اليمامة .

وورد ذكر نوح في شعر جرير قال :

وتعجب من شحوبي أم نوحٍ وما قاست رواحي وابتكاري [٢]

ومن شعر نوح قوله :

ألا قد أرى أن المنايا تصيبني فما ليَ عنهن انصرافٌ ولا بُدُّ [٣]
فذا العرش لا تجعل ببغداد ميتتي ولكن بنجدٍ حبذا بلداً نجدُ
بلادٌ نأت عنها البراغيث والتقى بها العين والآرام والعفر والربد

ومنهم عكرمة وموسى وأمها أمامة بنت عمر [٤] . ومنهم حجناء [٥] .

ومن بناته موفية وجَبَلة وزبداء وجعادة وأمهن أمامة بنت عمر : تزوج زبداء كسيب بن عمران بن عطاء بن الخَطَفى فولدت له مسحلاً وأيوب وكانت تكنى بأم مسحل . قال جرير في زبداء وقد خطبها ناس من بني كليب فكرهتهم :

تضجُّ زبداء من الخُطّابِ من قَطَريين ومن ضَبابِ [٦]
ومن أبي الدعجاء كالصُّوابِ ومن مجيبٍ فاتحِ العِيابِ

وقال بذكر جُعادة :

لما ارتحلنا ونحو الشام نيتنا قالت جُعادةُ هذي نيةٌ قذُفُ [٧]

---

(١) ابن عساكر ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٢) ديوان جرير ص ٢٢٠ .
(٣) معجم البلدان مادة نجد .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٣ .
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٥٣ .
(٦) ديوان جرير ص ٥٥ .
(٧) ديوان جرير ص ٣٨٧ .

ومن بناته أم غيلان ذكرها جرير في شعره فقال :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطيّ بنائم [١]

تزوجها الأبلق التيمي وذلك أن جريراً أصابته حمرة فتورم فأُتي له بالأبلق وكان يرقي منها ويداويها ، فقال له ما تجعل لي إن داويتك حتى تبرأ ؟ قال له جرير أجعل لك حكمك ، فلما بريء احتكم الأبلق أن يزوجه جرير بنته أم غيلان ، وكان جرير وفياً فزوجه إياها فقال الفرزدق :

لئن أم غيلان استحلُّ حرامها حمارُ الغضا من تفل ما كان ربَّقا [٢]

فما نال راقٍ مثلها من لعابه علمناه ممن سار غرباً وشرّقا

ومن بناته زينب خطبها ابن عم لجرير فلم تزل به زوجته أمامة وهو لا يريد تزويجها حتى زوجه إياها فقال :

وغرتنا أمامة فانجلنا عصيدة إذ تنجبت الفحولُ [٣]

إذا ما كان لخالك فحل سوءٍ خلجت الفحل أو لؤم الفصيل

ومن أحفاده عقيل بن بلال كان شاعراً [٤] . وابنه عمارة بن عقيل كان شاعراً مجيداً مكثراً فضّله بعضهم على جرير ، وبقي الى أيام المتوكل ، وأفرد له صاحب الأغاني [٥] ترجمة واسعة وقرظه وأثنى عليه . وترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [٦] والأنباري في طبقات الأدباء [٧] .

ويقول ابن دريد في الاشتقاق [٨] «ولجرير عقب باليمامة كثير» وفيما يلي شجرة تحمل أسماء من وقفنا على ذكرهم من بني الخطفى جد جرير :

---

(١) النقائض ص ٤٥٤ .

(٢) النقائض ص ٨٤٠ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٤٣ وديوان جرير ص ٤١٦ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٥٩ .

(٥) الأغاني ج ٢٠ ص ١٨٣ .

(٦) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢٨٢ .

(٧) طبقات الأدباء ص ٢٣٣ .

(٨) الاشتقاق ص ١٤٢ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

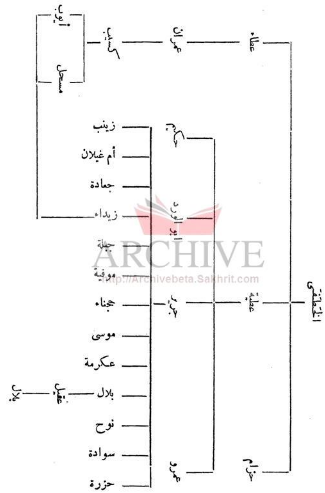
الخطفى
عطاء
عمران
عطية
حزام
حكم
أبو الورد
جرير
عمرو
زينب
أم غيلان
جمادة
زيداء
جبلة
موفية
جهناء
موسى
عكرمة
بلال
نوح
سوادة
حزرة
عقيل
بلال
مسحل

ومن رواة شعر جرير مربع الكلابي [١] وفيه يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامةٍ يا مربعُ [٢]

ومنهم آخر اسمه الحسين [٣] .

ووفد جرير الى الشام كثيراً يمدح الخلفاء والأمراء ، وأكثر في شعره من ذكر الشام وذكر أمكنتها كالموقّر بالبلقاء وبها كان ينزل يزيد بن عبد الملك ، قال :

هل مثل حاجتنا اليكم حاجةٌ أو مثل جاري بالموقّر جارُ [٤]

وقال :

أشاعت قريشٌ للفرزدق خزيةً وتلك الوفود النازلون الموقّرا [٥]

وقال بذكر الرصافة وبها كان ينزل هشام بن عبد الملك :

إن الرصافة منزلٌ لخليفةٍ جمع المكارمَ والعزائمَ والتقى [٦]

وقال بذكر بردى وتوما :

لا وِرد للقوم إن لم يعرفوا بردى إذا تجوّبَ عن أعناقها السدفُ [٧]

صبحن توماء والناقوس يقرعه قسُّ النصارى حراجيجاً بنا تجف

وقال بذكر لبنان :

وتزعم أن البين لا يشعف الفتى بلى مثل بيني يوم لبنان يشعف [٨]

وذهب الى مكة حاجاً والى المدينة زائراً ، وكان يذهب الى العراق يمدح الولاة ، وفي شعره ما يشير الى ذهابه الى مصر مادحاً عبد العزيز بن مروان قال :

---

(١) النقائض ص ٩٧٥ .

(٢) ديوان جرير ص ٣٤٨ .

(٣) النقائض ص ٤٣٠ .

(٤) ديوان جرير ص ٢١٨ .

(٥) ديوان جرير ص ٢٤٨ .

(٦) ديوان جرير ص ٤ .

(٧) ديوان جرير ص ٣٨٨ .

(٨) ديوان جرير ص ٣٧٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

طلبن ابن ليلى من رجاء فضوله ولولا ابن ليلى ما وردن بنا مصرا [١]

وذكر في شعره النيل فقال :

مخالفو اللؤم آلى لا يفارقهم حتى يرد على أدراجه النيل [٢]

وتوفي جرير باليمامة بعد الفرزدق بأشهر سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقبره فيها ، وعمر نيفاً وثمانين سنة .

صفته وأخلاقه

ولد جرير لسبعة أشهر فظل جسمه نحيفاً ، وقد أشار صاحب الأغاني الى ما يدل على ذلك مرتين ، مرة شبهه بالفرخ حينما أدخل على الحجاج بواسط [٣] ، ووصفه مرة أخرى بما يشعر بضآلة جسمه لما قرنه عمر بن عبد العزيز بالمدينة مع عمر بن لجأ بحبل ، حين تقاذفا [٤] .

وكان جرير أخنّ كأنما يخرج كلامه من أنفه ، وصفه صاحب الأغاني وهو ينشد بيتاً من الشعر فقال [٥] : « ثم قال بغنته قولاً يخرج الكلام به من أنفه وكان كلامه كأن فيه نوناً » .

وكان حسن الشعر يرسله [٦] كما يرسل لحيته [٧] وفي شعره ما يشير الى أنه كان يخضبها لما أدركه المشيب قال :

ورأت بلحيته خضاباً راعها والويل للفتيات من خضب اللحى [٨]

وكان يلبس برنس خز ويضع على رأسه قلنسوة ويرتدي الحلل والجبب التي

---

(١) ديوان جرير ص ٢٢٣ .
(٢) ديوان جرير ص ٤١٩ .
(٣) الأغاني ج ٨ ص ٧٥ .
(٤) الأغاني ج ٨ ص ٨٢ .
(٥) الأغاني ج ٨ ص ٨٢ .
(٦) الأغاني ج ٨ ص ٣١ .
(٧) الأغاني ج ٨ ص ١٣ .
(٨) ديوان جرير ص ٤ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت تهدى اليه [1] ، ولكنه لم يكن يلبس العباءة بل يعير الأخطل لبسها قال :

يا ذا العباءة إن بشراً قد قضى   أن لا تجوز حكومةُ النشوانِ [2]

وجرير على خبث لسانه في الهجاء كان عفيفاً ديِّناً تقياً وفياً يطيل التسبيح والاستغفار ، ويختم مجلسه بالتسبيح فيطيل [3] ، وكان لا يتكلم إذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس ولو تناحر الحي [4] وكان على فروسيته من أشد الناس فرقاً من السلطان [5] ، ولعل ذلك هو الذي جعل هواه السيامي مع بني أمية فلم ينصر ابن الزبير بيده أو لسانه مع أن جمهرة شعراء مضر كانوا زبيرية ، بل كان يمدح بني أمية ويشتم خصومهم كابن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث وابن المهلب ، ولم يكن يدخل فيما لا يعنيه ، إلاّ مرةً واحدة مدح الوليد ابن عبد الملك وحضه على البيعة لولده عبد العزيز قال :

الى عبد العزيز سمت عيون الر   عيـة إن تخيّرت الرِّعاء [6]
رأوا عبدَ العزيز وليَّ عهد   وما ظلموا بذاك ولا أساؤا
فزحلفها بأزفلها اليه   أمير المؤمنين إذا تشاء

وكان على مرارة خصومته مستقيماً ، لم يمدح أحداً فهجاه ، ولم يهج أحداً فمدحه ، يتكسب بالمدح ويقنع بما يقيم أوده ، فكانت جائزته من خلفاء بني أمية أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان ، ولم يكن عادة يأخذها أكثر من مرة في السنة يتحمل في سبيلها مشاقّ الرحلة من اليمامة الى الشام ، فلما شاخ وعجز عن السفر بعث بقصيدة الى هشام بن عبد الملك مع ابنه عكرمة [7] ، ولذلك لم يكن في خفض من العيش بل كان عيشه أدنى

(١) الأغاني ج ٨ ص ١٥ و ص ٢٢ و ص ٤٤ و ص ٦٥ .
(٢) ديوان جرير ص ٥٧٣ .
(٣) الأغاني ج ٨ ص ٤٤ .
(٤) النقائض ص ٨ .
(٥) النقائض ص ٣٢ .
(٦) ديوان جرير ص ٩ .
(٧) ديوان جرير ص ٥٠٢ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الى الخشونة . اشترى مرةً جاريةً من زيد بن النجار فاستخشنت عيشه ووجدته عجوزاً ففركته فقال :

تكلفني معيشةَ آلِ زيدٍ ومن لي بالمرقَّقِ والصِّنابِ [١]
وقالت لا تضم كضم زيدٍ وما ضمي وليس معي شبابي

فقال له الفرزدق :

إن تفركك علجة آلِ زيدٍ ويعوزك المرقَّقُ والصِّنابُ
فقدماً كان عيشُ أبيك مُرّاً بعيش بما تعيشُ به الكلابُ

وهو وإن رحل الى الحضر كثيراً ، فقد كان في اليمامة يعيش عيش البداة . ولعل من أحسن الشواهد على كرم أخلاقه شفاعته [٢] بالفرزدق ــ خصمه اللدود ــ لما حبسه خالد بن عبد الله القسري ورثاؤه [٣] له لما مات . وهو على بداوته وشدة عصبيته لقبيلته دمث الأخلاق لين الجانب مع الموالي فقد كان يحبهم ويمدحهم ، والموالي يحبونه ويحتفلون به . روى صاحب الأغاني بسنده عن هرون بن ابراهيم قال : « رأيت جريراً والفرزدق في مسجد دمشق ، والناس عُنُقٌ واحد على جرير ، قيس وموالي بني أمية يسلمون عليه ويسألونه كيف كنت يا أبا حزرة في مسيرك وكيف أهلك وأسبابك . وما يطيف بالفرزدق إلاّ نفر من خندف جلوس معه ، وذلك لمدح جرير قيساً وقوله في العجم :

فيجمعنــا والغرُّ أولادَ سارةٍ أبٌ لا نبالي بعده من تعذَّرا

وأهديت له يومئذٍ مائة حلة أهداها اليه الموالي سوى غيرهم [٤] » .

(يتبع) خليل مردم بك

---

(١) المرقّق : الخبز المنبسط الرقيق . والصِّناب : إدام يتخذ من الخردل والزبيب .
(٢) ديوان جرير ص ١٧٨ .
(٣) ديوان جرير ص ٤٠٧ و ص ٥٣٥ .
(٤) الأغاني ٨ ج ص ٦٤ .

حدود العقل عند الغزالي

العقل الانساني عند الفلاسفة يكون في أول أمره عقلاً بالقوة، ثم يصير عقلاً بالفعل، وهذا الانتقال من القوة الى الفعل لا يتم إلا بتأثير العقل الفعال. والعقول تتميز بعضها عن بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى منه المعرفة. وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا أن يدرك الصور الكلية، وبه يصير الاحساس علماً يقينياً.

فأنتم ترون أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل، لأن العقل عندهم يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة، وينتزع المعاني الكلية من الصور المتخيلة، ويؤلف هذه المعاني وفقاً لمبادئ كلية ضرورية، فهو في نظرهم يوصل إذن الى اليقين، لا بل هو المحك الأخير للحقيقة، على زنده تقدح كل معرفة، فلسفية كانت أو دينية أو صوفية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هو موقف الغزالي من العقل، هل العقل في نظره قادر على إدراك الحقائق بنفسه أم هو محتاج الى معونة خارجية؟

للاجابة عن هذا السؤال ينبغي لنا أولاً أن نحدد موقف الغزالي من المعرفة على الاطلاق.

ان موقف الغزالي من المعرفة يختلف عن موقف الفلاسفة في مبادئه وغاياته. فهو قد شك في المعرفة شكاً عاماً، شك في العلم الموروث، ثم شك في الحسيات والعقليات. بدأ شكه بنقد مذاهب زمانه، فتبين له أن هذه المذاهب متعارضة، وان سبب تناقضها يرجع الى فساد الطريقة المتبعة في تكوين العقيدة واعتناقها، وهذه الطريقة هي طريقة التقليد، فان التقليد لا يوصل الى الحقيقة، ويكفي

أن يكون الاعتقاد مبنياً على التقليد حتى يتسرب اليه الشك ، قال : « فإن صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام » . لذلك يجب على طالب الحقيقة أن ينبذ التقليد ، وأن لا يبني بحثه عن الحقيقة على العلم الموروث ، لأن المقلد يتحتم عليه المكوث في الضلال ان كان فيه ، أو التقيد بمعتقده التقليدي ، والامتناع عن رؤية الحقيقة اذا لاحت له . أما الباحث عن الحقيقة فلا يعتقد شيئاً أصلاً بل ينظر الى الدليل ويسمي مقتضاه حقاً ونقيضه باطلاً . وهذه هي طريقة الشك بعينها ، فالشك في نظر الغزالي هو إذن الخطوة الأولى للبحث عن الحقيقة ، لأن من لا يشك لا يبحث ، ومن لا يبحث لا يجد ، ومن لا يجد يبقى متخبطاً في غياهب الجهل .

وما كاد هذا الشك يدخل قلب الغزالي حتى استولى عليه كله . طمع أولاً في اقتباس اليقين من الحسيات ، فحكم عليها بما حكم به على التقليديات ، ثم طمع في اقتباس اليقين من العقليات ، فلم يجد فيها ما ينقذه من الضلال ، لأنه قال : إذا كان حاكم العقل يكذب حاكم الحس ، فلماذا لا يكون هناك وراء إدراك العقل حاكم آخر ، اذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وأيّد ذلك بقوله : يمكن أن تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم وتكون اليقظة نوماً بالاضافة اليها ، فبمَ نأمن أن يكون جميع ما نعتقده في يقظتنا حقاً . فأنتم ترون أن رحاب الشك عند الغزالي تمتد الى التقليديات والحسيات والعقليات ولولا النور الذي قذفه الله في صدره لبقي على مذهب السفسطة ، الا أنه استطاع أن ينقذ نفسه من الشك بطريقة الكشف الباطني ، فعادت نفسه الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية موثوقاً بها على أمن ويقين بالنور الذي أشرق عليه من الجود الإلهي .

ARCHIVE
http://ArchivebetaSakhrit.com

ما هو هذا النور الذي قذفه الله في الصدر ؟ إننا لا نجد في تآليف الغزالي جواباً على هذا السؤال . فالغزالي يقول في المنقذ من الضلال إن هذا النور هو مفتاح أكثر المعارف ، وأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيّق رحمة الله الواسعة . وان هذا النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام : إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها . والذي يستنتج من هذا النص أن الغزالي يقول : إن هذا النور مفتاح أكثر المعارف ، لا مفتاح جميع المعارف ، وان الكشف ليس موقوفاً على الأدلة المجردة ، بل قد يكون بالأدلة المجردة . وبغير الأدلة المجردة . ومعنى ذلك كله أن للعقل بذاته مبادئ أولية كالقول ان الكل أعظم من الجزء ، وان النفي والاثبات لا يجتمعان معاً في الشيء الواحد في وقت واحد ، وأن الشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً ، وان حدوث الشيء بدون محدث محال . فهذه المبادئ الأولية ضرورية ويقينية يقرها كل ذي عقل سليم لمجرد حضورها في الذهن . وهي فطرية فينا ، لا اختيارية ولا مكتسبة ، لأنها من خواص العقل ، واذا كان العقل محتاجاً في بعض الأحايين الى الجود الإلهي للخروج من الشك ، فان هذا الجود لا يفعل فعله إلا اذا كان مصحوباً باقتناع داخلي ذاتي بصحة مبادئ العقل .

واذا سألنا الآن سائل : الى أي أصل تستند مبادئ العقل عند الغزالي . هل تفرض نفسها على العقل بنفسها ، أم تفتقر الى أصل آخر تستند اليه ، وتستمد منه ثباتها ومتانتها . وبكلمة أخرى ما هو المحكّ الأخير للمعرفة ؟

قلنا اننا نجد عند الغزالي في هذه المسألة رأيين متعارضين : فهو يعترف أولاً أنه لم يستطع أن يشفي نفسه من الشك إلا بمعونة خارجية . وهذه المعونة الخارجية هي النور الذي ينبجس في القلب من الجود الإلهي . وهو يقول ثانياً إنّ مبادئ العقل ضرورية يقرها حتماً وبغير برهان كل ذي عقل سليم لمجرد

حضورها في الذهن ، فهي تستمد إذن قيمتها من الوضوح الذي فيها . ومن تصفح كتاب القسطاس المستقيم ، والمنقذ من الضلال ، والمستظهري ، وجد فيها أقوالاً متعارضة تؤيد هذين الرأيين .

فمن النصوص التي يؤيّد ظاهرها حاجة العقل الى معونة خارجية :

١ — طرح الباطني على الغزالي هذا السؤال : « فبمَ عرفتَ أن ذلك الميزان (ميزان المنطق) صادق أم كاذب ، أبعقلك ونظرك ، فالعقول متعارضة ، أم بالإمام المعصوم الصادق القائم بالحق في العالَم ، وهو مذهبي الذي أدعو اليه » فأجابه الغزالي : « ذلك أيضاً أعرفه بالتعليم ، ولكن من إمام الأئمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ، فاني وإن كنت لا أراه ، فإني أسمع تعليمه الذي تواتر إليَّ تواتراً لا أشك فيه ، وإنما تعليمه القرآن »[1] . فكأنَّ الغزالي يعترف هنا بأنَّ صدق الميزان لا يعرف بالعقل بل بالتعليم من النبي .

٢ — ثم إن الغزالي لا ينفكُّ يردّد في كتاب القسطاس المستقيم أنَّ الله علَّم الموازين لجبريل ، وجبريل علمها للأنبياء ، وهؤلاء نقلوها الينا في كتبهم . قال : فانَّ الله هو المعلم الأول ، والثاني جبريل ، والثالث الرسولُ ﷺ . والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ما ليس لهم طريق الى معرفته إلاَّ بهم[2] .

٣ — والغزالي يردّ على من يسأل ، وكيف وصلت هذه الموازين الى الأمم التي عرَفتها قبل مجيء الرسل والأنبياء (اليونان مثلاً) فيقول : « أما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن ، وما عندي أني سُبِقتُ الى استخراجها ، ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسماءٌ أُخَر سوى ما ذكرته . وعند بعض الأمم السابقة على بَعثة محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم أسامٍ أُخَر قد تعلموها من صحف ابراهيمَ وموسى عليهما الصلاة والسلام »[3] .

٤ — وهو يُرْجع أيضاً نشوء جميع المعارف المنتشرة بين البشر الى مصدر

---

(١) القسطاس المستقيم ، ص — ٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص — ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص — ٥٩ .

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

إلهي ، أي الى وحي قديم أنزله الله تعالى على أنبيائه ، وعلَّمهم به كلَّ أنواع الحكمة ، فعلم الطب لم يكن نتيجة اختبار الأطباء وتجاربهم واستنتاجهم العقلي ، بل كان ثمرة وحي أنزله الله تعالى على أنبيائه : « فان أدوية البدن تؤثّر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطّلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء » [1] ، وكذلك علم النجوم ، فالسبيل اليه هو إلهامٌ إلهي ، وتوفيقٌ من جهة الله تعالى ، وكذلك أيضاً الرياضيات فإنَّ مبادئها مأخوذة عن نبي مشفوع بالوحي والمعجزة . وهكذا قل في سائر العلوم .

ومن النصوص التي تدل على أن المحكّ الأخير للمعرفة هو وضوح المعاني وبداهتها قولُ الغزالي بوجوب الرجوع الى الأوليات عندما تعترضنا قضية غيرُ بينة الصدق : « خذ عيارَه من العلوم الأولية الضرورية المستفادة إما من الحس أو التجربة أو غريزة العقل ، فانظر في الأوليات هل تتصور أن يَثْبُتَ حكم على صفة إلاّ ويتعدّى الى الموصوف ؟ » [2] . وفي كتاب المستظهري يقول الغزالي إنَّ التلميذ إنما يقتنع بصحة ما يلقيه عليه معلمه من المعارف ، لا بمجرد إيمانه بقدرة معلمه وصدقه ، بل لأنه يرى بنور عقله صوابَ تلك المعارف .

فهذه النصوص المتعارضة تدل كما ترون على أمرين متناقضين الأول هو احتياج العقل في الوصول الى اليقين الى معونة خارجية . والثاني القول بأن المحكّ الأخيرَ للمعرفة هو وضوح المبادئ العقلية ، وفي هذا كما لا يخفى تناقض ظاهر . ولكننا اذا علمنا أن المعونة الخارجية لا تنفي بداهة العقل بل تقتضيها وتوجبها ، وأنَّ معرفة صحة الموازين بالتعليم من النبي لا تنفي أنَّ العقل يتحقق صحتها أثناء أخذها كما يتحقق التلميذ صحة تعاليم معلمه ، اذا علمنا ذلك كلّه لم نجدْ في هذه الأقوال المتعارضة بحسب الظاهر تناقضاً حقيقياً . فالله قد أنزلَ الموازين

(١) المنقذ من الضلال ، ص – ٨٢ .
(٢) القسطاس المستقيم ، ص – ٣٣ .

في كتبه ، ثم أتى طالبو العلم ، وأجالوا النظر فيها فحققوا صحتها بنور عقولهم .

يقول الغزالي : « والقوة العقلية كأنها القوة الباصرة في العين ، ورؤية الجزئيات الخيالية كتحديق البصر الى الأجسام المتلونة ، وإشراق نور الملك على النفوس البشرية يضاهي إشراق نور السراج على الأجسام المتلونة أو إشراق نور الشمس عليها ، وحصول العلم بنسبة تلك المفردات يضاهي حصول الأبصار بائتلاف ألوان الأجسام ، ولذلك شبه الله تعالى هذا النور على طريق ضرب مثال محسوس بمشكاة فيها مصباح » (معيار العلم ، ص ١٣٦ — ١٣٧) ، فلو لم يكن في العين استعداد للأبصار لما رأت شيئاً بالرغم من إشراق نور الشمس عليها ، فحصول الأبصار ناشئ إذن عن شرطين أحدهما داخلي ذاتي والآخر خارجي . وكذلك حصول العلم في النفوس البشرية ، فهو تابع لشرطين أحدهما استعداد القوة العقلية ، والثاني إشراق نور الملك عليها .

ومما يؤيد ذلك أن العلوم في نظر الغزالي انما تثبت في القلب بطريقين أحدهما طريق الاستدلال والتعليم والثاني طريق الإلهام ، وهو يفضل العلم الذي يحصل في القلب بطريق الإلهام على العلم الذي يحصل فيه بطريق التعلم .

ومن أحسن الأمثلة الدالة على إدراك الحقائق العقلية بطريقي الاستدلال والالهام مثال ذكره الغزالي في كتاب ميزان العمل . قال (ص ٤٧) :

« إن أهل الصين والروم تباهوا بحسن صناعة النقش والتصوير بين يدي بعض الملوك . فاستقر رأي الملك على أن يسلم اليهم صُفّةً بنقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ، ويُرخى بينهم حجاب بحيث لا يطلّع كل فريق على صاحبه ، فاذا فرغوا رُفع الحجاب ، ونظر الى الجانبين ، وعُرف رُجحان مَن رَجح من الفريقين ، فَفُعل ذلك ، فجمعَ أهلُ الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ، ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صِبْغ وهم يجلُون جانبهم ويصقلُونه ، والناس يتعجبون من توانيهم في طَلَب الصِّبْغ . فلما فرغ أهل الروم ادّعى أهل الصين أنّا أيضاً قد فرغنا . فقيل لهم كيف فرغتم ،

ولم يكن معكم صبغ ولا اشتغلتم بنقش ، فقالوا ما عليكم ، ارفعوا الحجاب ، وعلينا تصحيح دعوانا ، فرفعوا الحجاب واذا بجانبهم وقد تلألأت فيه جميع الأصباغ الرومية الغريبة إذ كان قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء ، فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء وظهر فيه ما سعى في تحصيله غيرهم» .

وهذا المثال أيضاً يدل على أن لتحصيل المعرفة طريقين أحدهما تحصيل عين النقش كطريق أهل الروم ، والثاني الاستعداد لقبول النقش من خارج . ومعنى ذلك أن النفس مستعدة في نظر الغزالي لأن تتجلى فيها حقائق العلوم مباشرة ، وذلك بالتعرض للنفحات الإلهية .

يقول الغزالي : «اذا فرضنا مرآة صدئة قد ستر الخبث صفاها ومنع انطباع صورنا فيها ، فكمال المرآة أن تستعد لقبول الصور فتحيلها كما هي عليها ، وعلى مكملها وظيفتان إحداهما الجلاء والصقل وهي إزالة الخبث الذي ينبغي أن لا يكون ، والثانية أن يحاذى بها نحو المطلوب حكاية صورته ، فكذلك نفس الآدمي مستعدة لأن تصير مرآة يحاذى بها شطر الحق في كل شيء فتنطبع به كأنها هو من وجه وان كانت غيره من وجه آخر كما في الصورة والمرآة» (ميزان العمل ، ص ٣٩ ـ ٤٠) .

وجملة القول ان للمعرفة طريقين أحدهما طريق الاستدلال والآخر طريق الإلهام أي طريق التعرض للجود الإلهي والترصد له . والعقل لا يحتاج الى هذه المعونة الخارجية في المنطق والرياضيات والطبيعيات ، ولكنه يحتاج اليها في الإلهيات . واذا احتاج الى معونة خارجية في مسائل التجربة فان هذه المعونة لا تنفعه إلا على سبيل الدعم والتثبيت ، وما صب النور الإلهي على مبادئ العقل ليكسبها وضوحاً وبداهة ، ولكن ليزيل عنها مداخل السفسطة ، ويعيد النفس الى الصحة والاعتدال . ولولا مداخل السفسطة لما احتاج العقل الى هذا النور .

فالغزالي يؤمن بصلاح النظر ومنفعتـه ، وصدق العقل في حكمه على أمور

التجربة ، ولكنه لا يؤمن بأن العقل المجرد عن الشرع وعن الوحي والإلهام يصلح للخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . نعم إنه يصرّح بأن من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضة وسائر الجواهر . ولكن هذا القول لا يدل على قدرة العقل على إدراك الحقائق الإلهية ، لأن الفضة وسائر الجواهر هي والذهبَ من جنس واحد ، أما الصفاتُ الإلهية ، وقدمُ العالم ، وبقاء النفس بعد الموت ، ومسائلُ الحشر والنشر ، فهي من الأمور التي لا يحكم العقل فيها إلاّ بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين .

واليكم بعض النصوص التي تدل على عجز العقل عن إدراك أسرار الأمور الإلهية .

١ — قد يكون أكثرُ هذه النصوص دلالةً على عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ما ذكره الغزالي في معرض حديثه عن الفلاسفة وقولهم : إنّ الله لا يعرف إلاّ نفسه . قال : « وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله ، والناكبين لطريق الهدى ، المنكرين لقوله : ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، الظانين بالله ظنّ السوء ، المعتقدين أنّ الأمورَ الربوبية تستولي على كنهها القوى البشرية ، المغرورين بقولهم ، زاعمين أنّ فيها مندوحةً عن تقليد الرسل وأتباعهم . فلا جرَم اضطرّوا الى الاعتراف بأنّ لباب معقولاتهم رجعت الى ما لو حكي في منام لتُعُجِّبَ منه » (التهافت ، ص ١٢٠ ـ ١٢١) .

٢ — ومن هذه النصوص قوله في معرض الكلام عن صفات الله : « فجميع ما ذكروه من صفات الأول أو نفوه لا حجة لهم عليه إلاّ تخميناتٌ وظنونٌ تستنكف الفقهاء منها في الظنيات . ولا غَرْوَ لو حار العقل في الصفات الإلهية ولا عَجَبَ . إنما العجب من عُجْبهم بأنفسهم وبأدلتهم ، ومن اعتقادهم أنهم عَرَفوا هذه الأمور معرفةً يقينية ، مع ما بها من الخبط والخبال » (تهافت ٥٣) .

وقال أيضاً : « ففي الناس من يذهب إلى أنّ حقائق الأمور الإلهية لا تنال بنظر العقل . بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . ولذلك قال صاحب الشرع تفكّروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله . فما إنكاركم على هذه الفرقة المعتقدة صدقَ الرسول بدليل المعجزة ، المقتصرة من قضية العقل على إثبات ذاتِ المرسِل ، المتحرّزة عن النظر في الصفات بنظر العقل ، المتبعة صاحبَ الشرع فيما أتى به من صفات الله ، المقتفية أثرَه في إطلاق العالِم والمريد والقادر والحي ، المنتهية عن اطلاق ما لم يُؤذَنْ فيه ، المعترفة بالعجز عن دركه بالعقل . » (التهافت ص ١٨٠ — ١٨١) .

٣ — ومن هذه النصوص اعتراضه على محاولة الفلاسفة شرحَ كيفيةِ خلقِ العالَم وصدورِ كثرته عن الواحد الأول . قال : « وما المانع من أن يقال : المبدأ الأول عالِمٌ قادر مريد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، يخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد . فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر . وقد ورَدَ به الأنبياء المؤيَّدُونَ بالمعجزات ، فيجب قبوله منهم . وأما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالإرادة ، ففضول وطمع في غير مطمع . والذين طمعوا في طلب المناسبة ومعرفتها رَجَع حاصل نظرهم الى أن المعلولَ الأولَ من حيث أنه ممكن الوجود صدر منه فلك ، ومن حيث أنه يعقل نفسه صدر منه نفس الفلك . وهذه حماقة لا إظهار مناسبة فلتُقْبَلْ مباديءُ هذه الأمور من الأنبياء وليُصَدَّقوا فيها ، فانَّ العقلَ لا يحيلها وليُترك البحث عن الكيفية ، والكمية ، والماهية فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية . ولذلك قال صاحب الشرع تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله » . (التهافت ص ١٣١ — ١٣٢) .

٤ — ومن هذه النصوص قولُ الغزالي مجيباً الفلاسفة الذين يزعمون أنهم توصلوا بطريق العقل الى معرفة الغرض من حركة الأجرام السماوية . قال :

« ان هذه خيالاتٌ لا حاصل لها ، وإنَّ أسرارَ ملكوتِ السموات لا يُطَّلَعُ عليها بأمثال هذه الخيالات ، وإنما يُطْلِعُ الله عليها أنبياءه وأولياءه على سبيل الإلهام لا على سبيل الاستدلال » (تهافت ٢٥٢) .

وقال أيضاً : « وأنَّ هذا إنْ كان صحيحاً فلا يطَّلِعُ عليه إلاَّ الأنبياء بالهام من الله أو وحي . وقياسُ العقل ليس يدل عليه » (تهافت : ٥٧) .

وقال في مكان آخر : « وما ذكرتموه ، وإن اعتُرِف بامكانه ، فلا يُعرف وجوده ، ولا يتحقق كونُه ، وإنما السبيلُ فيه أن يُتَعَرَّفَ من الشرع لا من العقل » (تهافت : ٦٢) .

وقال أيضاً : « ومن الأشياء ما تُعرَفُ استحالتُه ، ومنها ما يُعرَفُ إمكانُه ، ومنها ما يقف العقل عنده ، فلا يقضي فيه باستحالة ولا إمكان » (تهافت : ٦٩) .

٥ — ومن هذه النصوص أخيراً ، قول الغزالي إنَّ العقل عاجز كل العجز عن تمييز الخير من الشر ، وإنَّ الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك هي الوحي . قال : « إن العقل لا يهدي الى الأفعال المُنْجية في الآخرة ، كما لا يهدي الى الأدوية المعيدة للصحة » (الرسالة القدسية أصل ٩ ورقة ٣) .

وقال أيضاً : « ان العقل لا يرشد الى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يُفرِّق بين المشقي والمسعد » (الاقتصاد في الاعتقاد ٨٠) .

وقال أيضاً : « وندعي أنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله وشكر نعمته » (الاقتصاد في الاعتقاد ٧٧) .

وقال أيضاً : « ان في طريق الآخرة وفي دقائق سنن الشرع وآدابه وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسراراً ولطائفَ ليست في سَعَة العقل وقوته الإحاطةُ بها ، كما أنَّ في خواص الأحجار أموراً وعجائبَ غاب عن أهل الصنعة علمها » (الاحياء ج ١ ص ٢٠) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي وسعنا أن نذكر نصوصاً أخرى غير هذه .

أفلا تكفي هذه النصوص التي أوردناها للدلالة على أن العقل عاجز عن الإحاطة بأسرار الامور الإلهية .

واذا أردنا الآن أن نلخص موقف الغزالي من العقل قلنا ان أحكام العقل عنده صادقة في العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية ، وفي كل ما يتعلق بأمور التجربة ، فهو لم يشك في مبدأ الهوية لأن هذا المبدأ أساس المنطق والرياضيات . ولولاه لما صدق عندنا قياس ، ولا ثبت استنتاج ، وهو لم يشك في مبدأ السببية من حيث هو مبدأ عقلي ، بل شك في ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ارتباطاً حتمياً ، فأرجع قانون السببية الطبيعية الى الاعتياد ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والسببية الحقيقية ترجع عنده الى علاقة إرادية بين الله والعالم ، أما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له إلا إذا استند الى إرادة الله ، فالغزالي لم يشك إذن في أحكام العقل إلا شكاً عاماً موقتاً ، فلما وجد نفسه على شفا جرف هار التجأ الى الله تعالى ، فأنقذه الله من الشك ، فهو بالرغم من شكه في كل شيء لم يضيع ساعة واحدة نقته بالألطاف الإلهية ، وهذا النور الذي قذفه الله في الصدر لا نعرف له تأويلاً إلا قولنا بأنه اقتناع داخلي بصدق أحكام العقل ، فالعقل لا يحتاج إذن الى معونة خارجية إلا في حالتين : الأولى لشفائه من الشك إذا ما انتابته آفته ، والثانية لتنبيهه وإرشاده الى الأمور الإلهية التي لا يمكنه الاطلاع عليها إلا بالوحي والإلهام . أما فيما عدا ذلك فالعقل في نظر الغزالي آلة سليمة صالحة مفيدة وضرورية لاقتناص المعرفة ، أساسه الضروريات العقلية ، وسبيله النظر ، وميزانه قواعد المنطق ، ومحكه الأخير الوضوح والبداهة .

جميل صليبا

العرب والهندسة المستوية

أخذ اليونان الهندسة عن الأمم التي سبقتهم وقد درسوها درساً علمياً وأضافوا اليها إضافات هامة وكثيرة جعلت الهندسة علماً يونانياً . وأول من كتب منهم فيها اقليدس ، وعُرف كتابه باسم « كتاب اقليدس » . وفي هذا الكتاب قسّم اقليدس الهندسة الى خمسة أقسام رئيسية ووضع قضاياه على أساس منطقي عجيب لم يُسبق اليه جعل « الكتاب » المعتمد الوحيد الذي يرجع اليه كل من يريد وضع تأليفٍ في الهندسة .

وما الهندسة التي تدرس في المدارس الثانوية في مختلف الأنحاء إلاّ هندسة اقليدس مع تحوير بسيط في الاشارات وترتيب النظريات ونظام التمارين .

وحينما نهض العرب نهضتهم العلمية أخذوا كتاب اقليدس وترجموه الى لغتهم وتفهموه جيداً وزادوا على نظرياته ووضعوا بعض أعمال عويصة وتفننوا في حلولها .

ويقول ابن القفطي عن كتاب اقليدس « ... وسمّاه الاسلاميون (الأصول) ، وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع ، أصل هذا النوع ، لم يكن لليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن ولا جاء بعده إلاّ من دار حوله وقال قوله . وما في القوم إلاّ من سلم الى فضله وشهد بغزير نبله .. » وقال ابن خلدون في مقدمته : « ... والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة (الهندسة) كتاب اقليدس يسمى كتاب الأصول أو كتاب الأركان وهو أبسط ما وضع للمتعلمين وأول ما ترجم من كتب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور . ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحنين بن اسحق ولثابت بن قرة

وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة : أربع في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض ، وثلاث في العدد ، والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في المجسمات . وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعل ابن سينا في تعاليم الشفاء وأفرد له جزءاً أختصه به . وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم . وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية باطلاق ... »

وألف العرب كتباً على نسقه وأدخلوا فيها قضايا جديدة لم يعرفها القدماء . فقد وضع ابن الهيثم كتاباً من هذا الطراز يستحق أن يعتبر واسطة بين كتاب القواعد المفروضة والبراهين الاستقرائية لاقليدس وكتاب المحال المستوية السطوح لابولونيوس وبين كتابي سمسون Simson وستوارت Stewart فانه يمثل تلك الكتب كال الهندسة الابتدائية المعدّة لتسهيل حلّ الدعاوى النظرية . ويعترف ابن القفطي بفضل ابن الهيثم في الهندسة فيقول : «إنه صاحب التصانيف والتآليف في علم الهندسة . وكان عالماً بهذا الشأن متقناً له ، متفنناً فيه ، قيّماً بغوامضه ومعانيه ، مشاركاً في علوم الأوائل، أخذ عنه الناس واستفادوا ... »[1]

وألف محمد البغدادي رسالةً موضوعها تقسيم أي مستقيم الى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضة برسم مستقيم وهي اثنتان وعشرون قضية : سبع في المثلث ، وتسع في المربع ، وست في المخمس . ولقد طبق العرب الهندسة على المنطق وألف ابن الهيثم كتاباً في ذلك « ... كتاباً جمعتُ فيه الأُصول الهندسية والعددية من كتاب اقليدس وابولونيوس ، ونوّعتُ فيه الأصول وقسمتُها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية[2] والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابولونيوس » .

(١) ابن القفطي : اخبار العلماء ، ص ١١٤ .

(٢) طبقات الأطباء : ج ٢ ص ٩٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وابن الهيثم هذا من الذين اشتغلوا بالبصريات فكان أنبغ علماء العرب والمسلمين فيه . وقد ترك تراثاً ضخماً مليئاً بالابتكار والموضوعات الجديدة كانت أساساً لبحوث علماء القرون الوسطى ، كما كانت أساساً لكتاب Peckhan في البصريات ، وهذا الكتاب يُعَدُّ من أجل الكتب التي أحدثت أثراً بعيداً في العلم المذكور[1] ، وقد أتى على مسائل أدت الى استعمال الهندسة . ومن هذه المسائل ما هو صعب ويحتاج حلّه الى وقوف تام على الهندسة والجبر وبراعة في استعمال نظرياتها وقوانينها .

ومن المسائل التي وردت في نظريات ابن الهيثم المسألة الآتية : « .. كيف ترسم مستقيمين من نقطتين مفروضتين داخل دائرة معلومة الى أي نقطة مفروضة على محيطها بحيث يصنعان مع المماس المرسوم من تلك النقطة زاويتين متساويتين ... »

وللعرب مؤلفات عديدة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بجهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وفي التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين ، وفي موضوعات أخرى كتقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية وفي محيط الدائرة وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التي تحتاج الى استعمال الهندسة .

ويتجلى من نتاج علماء العرب أنه كان يسود بعض مصنفاتهم مسحة عملية واتجاه لتطبيق النظريات الهندسية والحسابية والجبرية على الأغراض العملية من شؤون حياتهم ولوازم مجتمعهم . فلقد وضع ابن الهيثم (مثلاً) مقالة (في استخراج سمت القبلة) ومقالة (فيما تدعو اليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية) ومقالة (في استخراج ما بين البلدين في البعد بجهة الأمور الهندسية) . وكذلك وضع ابن الهيثم كتاباً طابق فيه بين الأبنية والحفور بجميع الأشكال

(١) راجع كتاب تراث العرب العلمي لقدري حافظ طوقان : فصل ابن الهيثم في قسم التراجم .

الهندسية . وقد قال في ذلك « ... مقالة في إجارات الحفور والأبنية طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال حتى بلغت في ذلك الى أشكال قطوع المخروط الثلاثة المكافئ والزائد والناقص ... »

وبيّن العرب كيفية ايجاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها . ويتبين من كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي ان القيم التي وردت فيه للنسبة التقريبية هي :

$$\frac{٢٢}{٧} \quad و \quad \sqrt{١٠} \quad و \quad \frac{٦٢٨٣٢}{٢٠٠٠٠} \ (١)$$

وان أهل النجوم كانوا يستعملون القيمة الأخيرة وهي بالكسر العشري ٣٫١٤١٦ . وورد في الكتاب الحاشية الآتية ، وهي كما يعلق عليها الأستاذان مشرفة ومرسي احمد (تستحق الذكر والاهتمام) « .... وهو تقريب لا تحقيق ، ولا يقف أحد على حقيقة ذلك . ولا يعلم دورها إلا الله . لأن الخط ليس بمستقيم فيوقف على حقيقته ، وإنما قيل ذلك تقريباً كما قيل في جذر الأصم انه تقريب لا تحقيق لأن جذره لا يعلمه إلا الله . وأحسن ما في هذه الأقوال أن تضرب القطر في ثلاثة وسبع لأنه أخف وأسرع . والله أعلم » .

ولم يقف العرب في النسبة التقريبية عند أهل النجوم بل أوجدوها الى درجة من التقريب كانت محل دهشة العلماء . فلقد حسبها الكاشي فكانت ٣٫١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ . ولم نستطع أن نتأكد من استعمال علامة

---

(١) جاء في كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي ما يلي :

« ... وكل مدورة (أي دائرة) فان ضربك القطر في ثلاثة وسبع هو الدور (المحيط) الذي يحيط بها وهو الاصطلاح بين الناس من غير اضطرار . ولأهل الهندسة فيه قولان آخران : أحدهما أن تضرب القطر في مثاله ثم في عشر ثم تأخذ جذر ما اجتمع . فما كان فهو الدور . والقول الثاني لأهل النجوم منهم وهو أن تضرب القطر في اثنين وستين ألفاً وثمانمائة واثنتين وثلاثين ثم تقسم ذلك على عشرين ألفاً فما خرج فهو الدور . وكل ذلك قريب بعضه من بعض .. »

الكسر العشري (الفاصلة) . ولكن لدى البحث تبيّن أنه وضعها على الشكل الآتي :

صحيح

٣ ١٤٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢

وهذا الوضع يشير الى أن المسلمين في زمن الكاشي كانوا يعرفون شيئاً عن الكسر العشري ، وانهم بذلك سبقوا الأوروبيين في استعمال النظام العشري .

وامتاز العرب في بعض البحوث الهندسية فدلّلت على إحاطتهم بالمبادئ والقضايا التي تقوم عليها الهندسة ولا سيما فيما يتعلق بالمتوازيات . فلقد تنبه الطوسي لنقص اقليدس (في قضية المتوازيات) وحاول البرهنة عليها وبنى برهانه على فرضيات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اذا كان حـ د عموداً على ا ب في نقطة حـ . واذا كان الخط (س د ص) يصنع مع الخط (حـ د) زاوية حادة كالزاوية (حـ د ص) فحينئذ جميع الخطوط العمودية على (ا ب) والموجودة بين (د ص) و (ا ب) والمرسومة من جهة (د ص) تقصر تدريجياً . أي انه كلما بعد الخط العمودي على (حـ ب) عن (حـ د) زاد النقص في الطول .

فلقد كان لهذا البرهان أو الاتجاه في معالجة قضية المتوازيات والبحوث الأخرى التي وردت في كتاب (تحرير اصول اقليدس) وفي الرسالة الشافية للطوسي أثر في تقدم بعض النظريات الهندسية . وقد نشر جون واليس John wallis

هذه البحوث في اللاتينية سنة ١٦٥١ [1] وبهذه المناسبة لا بد لنا من الاشارة الى أن (تحرير أصول اقليدس) قد طبع في روما بالعربية سنة ١٥٩٤ [2] والرسالة الشافية طبعت بمطبعة دار المعارف العثمانية بعاصمة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٨ هـ .

وسخّر بعض علماء العرب (ولا سيما ابن الهيثم) الهندسة بنوعيها المستوية منها والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والاسطوانية والمخروطية المحدبة منها والمقعرة . وابتكروا لذلك الحلول العامة وبلغوا فيها الذروة . فقد استغل ابن الهيثم الهندسة الى أبعد الحدود في حلول كثير من القضايا المعقدة المتعلقة بالضوء وتناول دراسة (تعيين نقطة الانعكاس) على أساس منطقي سليم ، فعني أولاً بوضع بضع عمليات هندسية هي في ذاتها على جانب من الصعوبة ذكرها وبيّن كيفية إجرائها ، ووضع لها البراهين المضبوطة ، وذلك كله على أساس هندسي صحيح ، ثم اتخذ هذه العمليات الهندسية مقدمات الى الحلول التي أرادها لتعيين نقطة أو نقاط الانعكاس . ولم يقف عند هذه الحدود بل ساق لتلك الحلول براهينها الهندسية . وعلى هذا فبحوثه (كما يقول الأستاذ مصطفى نظيف) يجب أن تراعى كوحدة واحدة تتكون من قسمين أحدهما المقدمات الهندسية ، والثاني الحلول العامة المبنية على تلك المقدمات [3]

---

(١) كاجوري : تاريخ الرياضيات ، ص ١٢٨ ؛ ، راجع سارطون مج ٢ ص ١٠٠٣

(٢) كاجوري : تاريخ الرياضيات ، ص ١٢٧ .

(٣) راجع كتاب الحسن بن الهيثم لمصطفى نظيف مج ٢ ص ٩٢؛ :
أما المقدمات فهي ست . وقد أورد ابن الهيثم لكل منها وبرهن عليها ببرهان هندسي صحيح . ومن دراسة هذه المقدمات يتبين أن المقدمتين الأولى والثانية متشابهتان ، بل هما في الحقيقة صورتان لعملية هندسية واحدة . وكذلك المقدمتان الثالثة والسادسة متشابهتان وهما أيضاً صورتان لعملية هندسية واحدة . ولهذا –

ويتبين من هنا أنه ما كان لابن الهيثم أن يبتكر في علم الضوء ولا أن يتوفق في شرح بعض طرقه وعملياته ونظرياته لولا استعانته بالهندسة وتطبيقها في مسائل الضوء وجلائها مما جعل لبحوث ابن الهيثم قيمة علمية وعملية كانت ولا تزال محل تقدير الباحثين والعلماء في الشرق والغرب على السواء ٠

قد يستغرب القارئ اذا علم أن الأوروبيين لم يعرفوا الهندسة إلا عن طريق العرب ٠ فلقد وجد أحد علماء الانكليز في أوائل هذا القرن (حوالي سنة ١٩١٠ م) مقالتين هندسيتين قديمتين في مكتبة كنيسة وستر : الأولى كتبها

جمل الأستاذ مصطفى نظيف من مقدمات ابن الهيثم الست أربع عمليات هندسية تشملها جميعاً وهي :

١ – المعلوم نقطة أ على محيط دائرة قطرها ب ج . ويُراد إخراج مستقيم من أ يقطع محيط الدائرة في د والقطر ب ج (هو او امتداده) في نقطة ه بحيث يكون د ه يساوي طول مستقيم معلوم ٠

[وقد استعمل ابن الهيثم أثناء حله هذه العملية القطع الزائد] .

٢ – المعلوم مثلث أ ب ج قائم الزاوية في ج . ونقطة د على الضلع ج ب (هو او امتداده من جهة ب) ٠ ويراد من النقطة إخراج مستقيم يقطع الضلع الثاني أ ب (هو او امتداده) على نقطة ك ويقطع الوتر أ ج (هو او امتداده) على نقطة ط بحيث تكون النسبة $\frac{\text{ط ك}}{\text{ط ج}}$ = نسبة معلومة ولتكن ل .

٣ – المعلوم دائرة مركزها ج وقطرها أ ج ب . ونقطة ه مفروضة . والمطلوب إخراج مستقيم من نقطة ه يقطع محيط الدائرة في نقطة د والقطر أ ب على نقطة س بحيث يكون د س = ج س .

٤ – المعلوم دائرة مركزها ج ونقطتان ه ، د حيثما اتفق ٠ ويراد ايجاد نقطة أ على محيط الدائرة بحيث اذا وصل للمستقيمان ه أ ، د أ احاط احدهما مع الآخر بزاوية . وكانت الزاوية التي يحيط بها احدهما والمماس من نقطة أ مساوية الزاوية التي يحيط بها الآخر وهذا المماس .

(جربرت) الذي صار بابا سنة ٩٧٩ م باسم البابا سلفستر الثاني . ولم يكن كتاب اقليدس في الهندسة معروفاً حينئذٍ إلاّ في العربية . والثانية يرجع تاريخها الى أوائل القرن الثاني عشر للميلاد وكاتبها راهب اسمه ادلرد اوف باث Adelard of Bath ، فكان قد تعلم العربية ودرس في مدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية . والمقالتان باللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس العربية . وبقيت هذه الترجمة تدرس في جميع مدارس أوروبا الى سنة ١٨٥٣ م حينما كشف أصل هندسة اقليدس اليوناني [1] .

واشتغل العرب في المربعات السحرية التي هي من أصل صيني . وقد أخذ بها علماء الهند والعجم وغيرهم وتوسعوا فيها .

وقد رأى العرب فيها جمعاً بين بعض الأعداد وبعض الأشكال . وأول من بحث فيها ثابت بن قرة [2] وتبعه في هذا بعض علماء العرب . وقد ظهرت كثيراً في مؤلفاتهم وأطلقوا عليها اسم (الأشكال الترابية) .

ورأى فيها أصحاب الطلاسم والذين يعنون بالسحر والتدجيل منافع وفوائد يمكن استعمالها في الولادة وتسهيلها ، والمراهم والشربات وأفعال الترياقات وألحان الموسيقى وتأثيراتها في الأجساد والنفوس .

وجاء في هذا الشأن أن : « ... ما من شيء من الموجودات الرياضية والطبيعية والإلهية خاصية ليست لشيء آخر . ولمجموعاتها خواص ليست لمفرداتها من الأعداد والأشكال والصور والمكان والزمان والعقاقير والطعوم والألوان والروائح والأصوات والكلمات والأفعال والحروف والحركات فاذا جمعت بينها على النسب التأليفية ظهرت خواصها وأفعالها ... » [3] . ولسنا بحاجة الى القول

(١) راجع المقتطف مج ٣٨ عدد فبراير ١٩١١ ص ٢٠٢ .
(٢) راجع ثابت بن قرة في كتاب تراث العرب العلمي لقدري حافظ طوقان في قسم التراجم .
(٣) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٧١ .

ان كثيرين من رياضيي العرب لم يعتقدوا أن هناك منافع أو فوائد تأتي عن هذه المربعات بأعدادها وأشكالها بل كانوا يرون فيها تسلية فكرية ومتعة عقلية لا أكثر .

ولا بدّ لنا قبل الانتهاء من هذا المقال من التعرّض لآراء علماء العرب في فوائد الهندسة ، فقالوا ان الهندسة على نوعين : عقلية وحسية . فالحسية هي معرفة المقادير وما يعرض فيها من المعاني اذا أضيف بعضها الى بعض ، وهي ما يرى بالبصر ويدرك باللمس . والعقلي بضد ذلك وهو ما يعرف ويفهم .

وقد بحث العرب هذا كله بالتفصيل في مؤلفاتهم ورسائلهم ، وكانوا يرون أن في الهندسة فوائد وأدركوا اتصالها بالحياة العملية وتمادوا في تقدير أثر الهندسة على الانسان من الناحية الروحية .

فالنظر في الهندسة الحسية « ... يؤدي الى الحذق في الصنائع كلها وخاصة في المساحة ، وهي صناعة يحتاج اليها العمال والكتاب والدهاقين وأصحاب الضياع والعقارات في معاملاتهم من جباية الخراج وحفر الأنهار وعمل البريدات وما شاكلها .. »

والنظر في الهندسة العقلية يؤدي الى الحذق في الصنائع العلمية « ... لأن هذا العلم هو أحد الأبواب التي تؤدي الى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلم وعنصر الحكمة ... »

وكان بعض علماء العرب يرى أن الهندسة العقلية هي أحد أغراض الحكماء الراسخين في العلوم الإلهية المرتاضين بالرياضيات الفلسفية ، وإن تقديم علم العدد على علم الهندسة هو تخريج المتعلمين من المحسوسات الى المعقولات ، وترقية من الأمور الجسمانية الى الأمور الروحانية .

قدري حافظ طوقان (نابلس)

محمد كرد علي (1)

حياته وآثاره

تمهيد

حياة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي حافلة شاملة ، وقف دون تسجيلها كتّابنا ، وحار فيها المترجمون ، فلم يبدئوا ولم يعيدوا . لذلك خلت صحفنا العربية ومصادرنا الأدبية والتاريخية من ترجمة له أو حديث نافع فيه . ولذلك كانت مهمتنا عسيرة ، فليس لنا من مَعين إلا كتبه وآثاره ، وما ترك قلمه في ترجمة حياته ، وما وقع له ، فعليها اعتمدنا ومنها اقتبسنا ، وبعباراتها الحرفية أخذنا ، لئلا نحيد عن خطة الدارس النزيه ، ونحن لا ندّعي الإحاطة والتوفيق في رسم سيرته أو تعداد كتبه ومقالاته .

وكيف ندّعي الإحاطة في سيرة رجل طوى سبعاً وسبعين سنة في عمل مستمر ، ويقظة عجيبة ، لا يكاد يستقر في بلد حتى ينتقل الى غيره ، فيطوّف في بلاد كثيرة يزور بعضها مرات عدّة ، فيسافر الى لندن ، وبرلين ، وباريس ، ومدريد ، وروما ، وبودابست ، والآستانة ، والقاهرة ، والمدينة المنورة . ولا يكاد يقر قراره في مسلك واحد ، فهو في الصحافة والجامعة والوزارة والمجمع العلمي العربي بدمشق ، والمجمع اللغوي بمصر ، ومع الشرقيين والمستشرقين .

لقد كان - رحمه الله - حركةً لا تهدأ في الكتابة والتأليف . وكان

---

(1) لمناسبة الذكرى الثانية لوفاته رحمه الله .

لسانه لا ينقطع عن حديث عذب متصل ، ونكتة بارعة تسبق نكتة بارعة ، وضحكة يطلقها لتلحق بضحكة تسبقها ، وقهقهة لطيفة يميل لها جسمه ، وتنفرج أساريره ، فكأنّ عينيه الشهلاوين تبتسمان من وراء نظارتيه ، ووجهه الأبيض المشرق يحمرّ بالسرور والنضرة . ذلك أنه يحب الطرب والموسيقا والجمال ، ويعشق الحكاية والقصة والنكتة ، ويهيم بالمجلس اللطيف والعشرة الصافية ، فيفيض بالسحر الحلال من جمل الدعابة والتحبب ، وتنقلب نفسه الكبيرة في دقائق الى براءة الطفل وسحر السذاجة ، فيخيل اليك أنه أول مرة يضحك فيها بعد طول عبوس ، وتستطيع حينذاك أن تطلب فتجاب ، وأن تقول فيستمع اليك ، على أن تتلطف في الحديث ، وتبتعد عن السفاسف في القول ، فان كنت لا تملك شيئاً من هذا فاسكت .

ذلك لأن كلمة عابرة ونكتة صافرة ، تؤذي سمعه وذكاءه ، فينقلب المجلس إلى كدر ، وتسمع ما لا قِبل لك به ، وتعرف حينئذ أن ليس لك معه لقاء ، وان تملك معه الصفاء ، وخير في هذا ، أن تزايل المكان وتبرح المجلس ، فالرجل أديب فنان لا يرتضي لجليسه غير الرقة في الأسلوب والدقة في الحديث .

وأما إذا كنت تتحدث في الجهد والسعي والصبر على العلم ، فهو شديد الإقبال على المشتغلين ، كثير التحمس للمجتهدين ، يحبّ النظام ويعشق التدقيق والتحقيق ، ويكره الفوضى ويحارب الرياء ، لا يفرّق بين دين ودين لأنه يمقت التعصب ، وطبقة وطبقة لأنه يرى الناس أخوة . وانما همّه أن يرى من يعمل فيجيد ، ويقرأ فيفهم ، لا يؤخذ بالشهادات ولا يخدع بالألقاب ، فاذا كان لك سعي حميد إلى جانب ذلك رفعك فوق مكانتك ، وأحبّك فوق رتبتك ، ومال إليك بسمعه ، ودعا لك في مجالسه ، فأنت تطير بجناحين من

مديحه ، ذلك لأنه أديب عاطفي يحبّ ويكره ، ويذم ويمدح ، فاذا ارتسمت صورة من حبّ لم يطمسها واش ، واذا ارتسمت صورة من كره لم يمحها مادح ، إلاّ اذا رأى بالتجربة وخبر بنفسه ، وقرأ بعينيه ، فأنت حيث يضعك أدبك وقلمك وعلمك .

دخلتُ عليه كثيراً في بيته ، والعباءة على كتفيه ، بـ « جسرين » أو في دمشق ، فرأيته يذيب نور عينيه في صحيفة أجنبية وصلت منذ أيام ، يقرأ فيها عن رأي الغربي في الشرق أو مجلة مستشرقة تنشر في أدبنا وثقافتنا ، فهو شديد التتبع لما يقع وراء الحدود وفي الآفاق العليا ، وهو شديد النهم لمعرفة أخبار المطبوع والمخطوط ، عاش عُمره لها وقضى في سبيلها .

كانت المقالات والكتب تعرض عليه فيتولاّها بالنقد والتجريح والاصلاح والتبديل قبل النشر ، لا يسكت عن خطأ ولا يخشى في الحق لوماً . بل يقول في صراحة ما يعتلج بقلبه ويلج في صدره ، كأنه يستريح بعد القول ، لا يستطيع أن يكتم بغضاً أو نقداً ، وهذا الخلق كثّر أعداءه وجمع الخصوم عليه . وهو عصامي يعتزّ بأنه صمد كثيراً للحياة والمبغضين ، ويفخر بأن كتبه أوصلته الى الوزارة ورئاسة المجمع ، وقد بلغها عن كفاية وعلم ، وبلغ كثير غيره عن ضعة في النفس ، وذلّة في الحياة ، وتمسح بالسلطان .

رأيته يبكي حين دخل عليه عالم أجنبيّ ، كان يسعى إلى يدي رئيسنا ليقبلها ، فهاله إكبار الغرباء لسعي العلماء ، وقنع من جدّه بهذا الجزاء . ولا تسل عن ذاكرة عجيبة ومقدرة في الوصف غريبة ، حين سأله العالم عن أمور عفى عليها الزمان منذ بعيد ، فقد كانت ذاكرته تزداد مع الشيخوخة ، وتقوى كلما نحل جسمه وضعفت عيناه .

كان في عشر الثمانين من عمره يعمل لكتاب « البيزرة » في مخطوطة مصحّفة ، فما نزلت مخطوطتها من يده ، ولا ملّ صحبة سطورها ، فهو يستلذّ العمل في

سبيل المجمع العلمي : مطبوعاته شاهدة على قوة ، ومجلته دلالة على استمرار ، لأنه رأى ولادة المجمع العلمي بدمشق ، ووقف حياته في الدفاع عنه ، فاستهدف لغضب الطامعين في دخوله ، والغاضبين لوجوده ، والحاسدين لجهوده . وبعض الناس لا يريد أن يعمل ولا يريد لغيره أن يعمل . وقد شبَّ كثير مع الرئيس وشابوا ، فأصبح في سدَّة العلماء المشهورين ، وما يزالون من دمشق في شهرة فقيرة ، وعدَّة من العلم يسيرة ، وهو في بحر من رسائل المديح تأتيه من الغربيين والشرقيين .

يعمل الموظفون في دوائرهم ، وحولهم من يعينهم أو يكتب لهم ، ويعمل الرئيس في كتبه وحده ، يكتب بخطه ، ويصحح بقلمه ، ويراسل بيده ، ولا معاون يكل اليه الأمر ، أو يكتم له السر ، وقد يخط عشرات الرسائل ، ويصحح عشرات الصفحات يحققها ، وينظر في مقالات غيره من الأعضاء والأدباء والعلماء ، وهو لا يشكو ولا يتذمَّر ، لأن الخلود يكلّف النوابغ جزية يسيرة : هي أن تصمد قلوبهم لهذا السعي المتواصل ، ولو دلفوا إلى الثمانين [1] .

رحم الله محمد كرد علي ، إنه لم يرحم قلبه ، ولم يشفق على عينيه ، ولم يحرص على صحته ، وإنما أنفق ذلك في سبيل هذا الوطن وأبنائه ، فله من الوطن الإكبار والتخليد ، ومن المجمع العلمي العربي دمع لا ينفد ، وحسرة لا تنقضي ، ومكان لا يُنسى .

ولقد أراد مجمعنا العلمي بدمشق أن يرسل في ذكراه سطوراً موجزة ، تصف حياته وتعدّد آثاره ، يقدّمها إكليلاً الى ضريحه الخالد ، فكلفني وشرفني بهذه المهمة ، فبذلتُ ما وسعني ، وهذا جهد المقل ، داعياً الى الله أن يعطر ضريحه بوابل رحمته ، وأن يسكنه فسيح جنته .

(١) رسم العلاّمة المرحوم أخلاقه وحياته وما لقي خلال عمره ، في مقال جميل ننصح الذين يعشقون الأدب أن يقرءوه ، فهو من أطيب ما خطته أنامله ، وهو فيه كأنه ينعي نفسه ويلخص ما علمته الأيام من دروس ، وكان علينا أن ننقله هنا ولكن المجال ضيق ، فنحيل القارئ اليه في مذكراته ٢/٦٤٩ - ٦٥٣ .

أيام الحداثة والدراسة

« ١٨٧٦ – ١٨٩٢ »

ولادته

قدم جدّه « محمد » من السليمانية [1] بشمالي العراق ، وهو تاجر كرديّ من الأبوبية ، فاتصل بالشام ورحل الى الحجاز والأستانة ثم عاد الى دمشق واستقر فيها [2] . ونشأ أبوه « عبد الرزاق » في الخياطة أول الأمر ، ثم عمل في التجارة فربح [3] ، واشترى مزرعة في الغوطة بقرية « جسرين » ، وتزوج امرأة شركسية أصلها من قفقاسيا [4] ، فولد له منها غلام ، في أواخر صفر سنة ١٢٩٣/١٨٧٦ ، سمّاه « محمداً » ولقبه بـ « فريد » .

الدراسة الابتدائية

ودبّ الطفل « محمد فريد » في بيت أبيه ، في زقاق البرغل ، وأحاطته أمه بعناية فائقة ، ومنحه أبوه عطفاً غالياً ، ثم أسلمه في السادسة من عمره الى مدرسة كافل سيباي الأميرية الابتدائية « وهي المدرسة السباهية » [5] ، يتعلم فيها خلال العام ، فاذا كانت العطلة الصيفية استسلم الصبيّ الى البيت ، يسرح ويمرح ، يطوّف

---

(١) بلدة قائمة على سفح جبل مارمير ، تبعد عن كركوك ٧٢ ميلاً .

(٢) قص علاّمتنا الراحل في خطط الشام ما وصل اليه من أن خلافاً وقع بين جده ومحافظ الحج ، سافر له الجدّ شاكياً الى الأستانة ، وخاب في سعيه فافتقر وهلك – خطط الشام ٤١١/٦ .

(٣) قصّ علينا كذلك من أمر ابيه وسفره الى الأستانة واتصاله بكبار القوم هناك وفي دمشق ما نحيل به القاريء الى المذكرات ، بالصفحات ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤٢ .

(٤) يقول الرجل في مذكراته ص ٥ : « فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آريّ لا يقبل النزاع » .

(٥) انظر ثمار المقاصد ليوسف بن عبد الهادي ، وتعليق الدكتور اسعد طلس ، بحاشية الصفحة ٩٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الماء عصر كل يوم في صحن الدار ، ويسبح في الحوض حتى يتبرّد . فاذا سار الى «جسرين» ركب مع أبيه على فرسه ، واجتاز الغوطة ، ورأى الظلّ والنور يتلاعبان طول الطريق على رأس أبيه ، ويجريان أمامه في خطوط عرضية تمرض وتدق ، ورأى الانسان والحيوان يمشيان في خدمة المدنية وأهلها ، وشهد الحصاد والرجاد ، والبيادر والنواطير ، فكان يقضي نُهُرَه في الحقول الواسعة ، يطيّر طيارته في الهواء ، أو يسبح في ماء النهر ، أو يعبث ساعات من نهار بالأرجوحة مع أخته تقذفه ويقذفها [١] .

لذلك كان الصيف حلماً من أحلام الصبيّ ، وكانت القرية سكناً ومرتعاً خصباً لخياله وآماله ، يستمتع بالضفادع في مناقعها ، ويطرب لأصواتها ، ويأنس بالفلاح ويسرّ لدعابته ، فأحبّ القرية وعشقها ، ووقعت «جسرين» من نفسه موقعاً خالداً ، عاش فيها أحلى حياته ، وسجّل فيها أجمل مؤلفاته .

وترعرع الطفل في كنف الرعاية والعناية عند النساء كذلك ، وأحسّ بذلك منذ نعومة أظفاره ، فخلّف في نفسه حساً دقيقاً رائعاً ، لبث يصحبه بعد الستين والسبعين ، إذ يقول بعد نصف قرن :

«شعرتُ أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحبّ الاجتماع اليهنّ ، وأفضّله على الاجتماع الى أترابي ، وأُحبُّ سماع كلام من يختلف منهن الى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهنّ من أرضعنني فصرتُ ابنهنّ من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممنني إلى صدورهن ، ويقبلنني وأضمهنّ وأُقبلهنّ» [٢] .

---

(١) المذكرات ١٢ .

(٢) المذكرات ١٤ .

وهكذا كان لطفولته المرحة ، وحياة الطبيعة وعناية النساء به أثر كبير في حياته ، فقد كان يقول : « وبقيت بعد ذلك أوثر مجلس النساء مهما كان لونه على مجالس الرجال الى أن شببت وشبت » . ورافق النساء والطبيعة ، شعور بالموسيقا والطرب ، فقد كانت أمه تصحبه الى حفلات الاعراس لذلك الزمان ، فيشهد « التخت » ويسمع الى المغنيات ، وينظر الى الجمال والفتنة فيما يرى وفيما يسمع ، فنشأ عنده حسّ الفنّ ، ونما حتى عشق الألوان والأصوات . واحتلّ ذلك من نفسه موقعاً كبيراً ، وأثار في أدبه وكتابته سطوراً لا تمحى ، ظهر أثرها فيما كتب وفيما سطّر ؛ فهو يذكر بعد سنين عاماً لون حذائه للعيد ، وما يقدم من حلوى في البيوت ، وما يقوم من ملاعب في الشوارع .

كلّ هذه المشاهد الفاتنة ، في المدينة والقرية ، أثّرت في عقل الصبيّ واشتركت في تفكيره وذكائه ، فقد قرأ في كتاب الطبيعة ، وسبح في مفاتنها منذ صباه ، وتفتحت عيناه على أجمل ما يسرّ العيون ، فأشرقت في نفسه ألوان الفهم ، وأشربت روحه حبّ النكتة والقصة والخيال .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلما كان في السادسة زار مع أمه بيت الشيخ محمد الطنطاوي بالقيمرية ، ووقع بصره على رفوف للكتب ، فشهق لمرآها ، وسأل عنها فأجابته : « إنها كتب يقرأ فيها العلماء » فأحبّ ألوانها وطريقة ترتيبها ، ودعاه ذلك الى أن يقول في لسان الصبيّ الساذج : « أنا أحبّ أن أتعلم هذه الصنعة » ؛ ودفعه أبوه الى الكتب ، ودفعته أمه الى حبّها ؛ واندفع هو بسائق وعده الى هذه الصنعة ، مع أنه يقول في أبيه : « ووالدي كان عامياً يقرب من الأمية ، أنفق عن سعة ليعلمني ، فكان مدة سنين يدرّ الرواتب على أساتذتي ، وقد ابتاع لي مكتبة » [1] . ولهذه المكتبة وهؤلاء المعلمين أثر في تربيته وثقافته وتفوقه على أقرانه .

(١) خطط الشام ٦/٤١٣ .

الدراسة الثانوية

ولما أتمّ الدراسة الابتدائية حوالي سنة ١٨٨٦ م ، انتقل الى الدراسة الرشدية ، وسمي « محمد تعديل » نسبة الى حيّ كان يسكنه أبوه على عادة ذلك الزمن . وراح في هذه الحقبة يقرأ ويقرأ حتى هام بالمطالعة ، وأصبح يسهر الليل حتى الهزيع الثاني منـه ، في قراءة جريدة أو كتاب . فضعف بصره ، وساءت صحتـه ، ونصح له الأقارب والأصدقاء في الاعتدال ، ولكنه مع ذلك ما كان يذعن إلاّ حين يُطفئ أهله المصباح لينام ويستريح .

وأنّى لنفسه المتيقظة أن تستريح ، وهو في كل يوم يقع على ألوان من الإغراء في المطالعة والجدّ ، فقد دخل على صفّه ذات يوم ، رجلٌ في عمامة وجبة ، يتحدث في لهجة مغربية ، فدهش الطفل لما رأى ، ولما سأل عنه قيل له : إنه المفتش العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، وهو أمنع من شيخه وأستاذه ، وأنه يستطيع أن يعزل الأستاذ ، فقال في نفسه : « ياليتني أكون مثله ! » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا أعجب وهو صغير بالكتب الجميلة المصفوفة والعلماء المهيبين المحترمين ، فأحب أن تكون له الكتب في بيته حين يكبر وأن يكون في العلماء المهيبين لعصره ، فاستزاد من الكتب ، وأطاعه أبوه فابتاع له جملة منها في التركات . ـ وكانت تباع التركات في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة ـ وصحب الكتب وقرأ فيها ، وراح يعبُّ من الصحف ، وهو في الثالثة عشرة من عمره : «بدأت أقرأ الجرائد اليومية في الثالثة عشرة من عمري ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية ، وبعد حين اشتركت بجريدتين : بيروت الأسبوعية ولسان الحال نصف الأسبوعية» . ووصف لنا ما كان يقرأ فيها : « أولعت بمطالعة لسان الحال لأن فيها أخباراً طريفةً معرَّبة عن الانكليزية ، واشتركتُ لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة افرنسية أُسبوعية تصدر

في باريز اسمها « صديق الريف » ، وأطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الأستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية »[١] .

وبذلك انتقل من كتاب الطبيعة المفتوح في صباه الى كتب مطبوعة في شبابه ، ومال الى الصحف والمجلات يقرأ فيها حتى عشق المطالعة ونال منها حظاً وافراً في ثقافته ولغته وأسلوبه ، ونالت من صحته وعينيه . وهذه الثقافة لم تقف على لغة واحدة ، وانما اشتركت فيها ثلاث لغات ، كان يقرأ عن آدابها في صحفه ، وهي العربية والتركية والفرنسية[١] فسبق اخوانه ، وفاقهم ثقافة في الحياة ، ونشأ فيه ميلٌ عميق الى الخيال والأدب والصحافة والثقافة العامة ، وسنرى أثر ذلك في حياته المقبلة ، حين أصبح صحافياً وغدا منشئاً مترسلاً ، يعمل للثقافة الغربية الجديدة والثقافة العربية القديمة ، يشرك هذه وهذه معاً في جهده ، ويتخذ الطبيعة مصدر وحيه ، ومن الرحلات مادة كتابته ، ومن الآثار والكتب مجموع دراساته وتآليفه .

ولن نستغرب قوله : « وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد » ، بل هو يعجب لهذا الأثر فيقول : « ما كنت أظن أن هذه البداءة تنتهي بي الى الغرام بالصحافة »[١] .

وتعلق الشاب في دراسته الثانوية بالشعر العربي وبالسجع المنمّق وشارك في الأسلوب القديم ، وعكف على شيوخه يعبّ من علمهم وأدبهم ، وهم من مشهوري عصره لبلده : السيد سليم البخاري ، والشيخ محمد المبارك ، والشيخ طاهر الجزائري . وأخذ منهم حبّ الكتب القديمة ، وعشق هذه الثروة الكبيرة ، فجمع في نفسه حباً عارماً لكنوز الأجداد وآثارهم وكتبهم ، فقضى صحبتهم أكثر عمره . ومن العجيب أن يتجاور القديم والحديث في نفس هذا الشاب وأن تتصاحب

(١) المذكرات ٥١ .

الثقافة الصحفية الجديدة والثقافة العربية القديمة ، وأن يعيش في قلبه شعوران عميقان أحدهما يدفعه الى أن يأخذ بحظه الكبير من قراءة هذه الكتب الصفراء المثقلة بالهوامش والتعليقات لعله يفهم العقل العربي على أربعة عشر قرناً فيه التاريخ والأدب ، وثانيهما يدفعه الى أن يأخذ بحظه الواسع من قراءة هذه الصحف الجديدة المصوَّرة والمبوَّبة التي لا تمتُّ الى القديم بشيء ، وانما تحمله الى أجواء البوسفور والسين .

لذلك عاش في مدرسته الثانوية ، وقد ثقف من العربية على شيوخه ، وأخذ من الفرنسية بالمدرسة العازارية ، حتى ترك دراسته الثانوية ، وهو على شيء كثير من الثقافة العامة كما كانت لزمنه ، والقرن التاسع عشر يشارف الاحتضار . والذين يعرفون القرن التاسع عشر في الشام يشهدون بأن الأمية كانت ضاربة بجرانها في هذا البلد ، وأن الكتب المطبوعة نادرة عزيزة ، وأن المتعلمين أندر من الكتب ، لذلك سبق الشاب زمانه ، وكان « فريداً » حقاً ، كما لقبه أبوه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

في غمار الصحافة

« ١٨٩٢ — ١٩١٨ »

في الوظيفة بعد أن قضى الشاب في دراسته الثانوية سنوات من عمره ، دخل غمار الوظيفة على عادة أقرانه ، وهو في السابعة عشرة ، فكان موظفاً كاتباً في قلم الأمور الأجنبية ، سنة ١٨٩٢ ، وكان يجيد الفرنسية والتركية والعربية . ولسنا نعلم مدى رضاه عن عمله هذا خلال ست سنوات ، وما كان يعترضه أثناءه ، وإنما عرفنا أنه كان معتزاً بفرنسيته : « ومعرفة المسلم لهذه اللغة أمر مدهش آنذاك » . ويبدو أن اللغة

أعانته على الوظيفة ، ودفعته الى الترجمة فشرع بنقل رواية فرنسية هي « قبعة اليهودي ليفمان » أعانه في سبكها أستاذه الشيخ محمد المبارك .

في التحرير وشرع بعد ذلك يرسل في الصحف مقالات باسمه يصفها بقوله : « لم تصل الى أكثر من أقوال مبتدئ » ، وقوله : « لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زغب له ، أمام بواشق كاسرة »[1] . وشجعه هذا الى أن يدخل في تحرير الصحف ، سنة ١٨٩٧ ، وهو في الثانية والعشرين : « ويبلغ بي الخال الى أن أحرر أول جريدة ظهرت في دمشق ، واطرد صدورها مدة ، واسمها الشام ، وكانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف الشقللي ، مدير مطبعة الولاية ، ومدير إطفاء الحريق . وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريدته ، ولم يكن يحسن الكتابة بالعربية فاتكل على صهره أديب أفندي الطناحي المصري ، وكان هذا يلفق بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لأديب اسحق ، ويصوغ من عنده بعض جمل . واتكل أيضاً على اسماعيل افندي النابلسي من أبناء الأعيان ، وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب »[2] .

ثم قال : « ملَّ صاحب الشام ، على ما قال ، من إعنات هذين المحرِّرين له ، فعهد إليَّ بتحرير جريدته ، ولما أخذتُ بالنقل عن التركية والفرنسية شعرتُ بخطورة العمل الذي وسِّد إليَّ ، وأشد ما كان يؤلمني كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الغيظ حتى يؤذن للجريدة بالطبع » .

ولبث الشاب يحرِّر في هذه الجريدة ثلاث سنوات ، على الرغم من كلِّ ما كان يعترضه فيها ، فقد رضع لبان الصحافة قارئاً صغيراً على مقاعد الدرس ، وغذاها شاباً وهو لمَّا يبلغ الخامسة والعشرين ، فظهر في حياته أول أثر من

(١) المذكرات ٢١ .
(٢) المذكرات ٥١ .

آثار نشأته وثقافته وقراءاته . ولم يقف عند هذا ، بل راح يكتب لكبرى الصحف المصرية آنذاك ، وهي مجلة «المقتطف» وذلك لأن صاحب المقتطف شكا الى الأمير شكيب أرسلان شدة الإرهاق الذي يلاقيه من تحرير صحيفته كلها بنفسه ، وهي في حجم يزيد على مئة صفحة في كل شهر ، فأحاله على صديقه الشاب محمد كرد علي ، وقبيل هذا مغتبطاً ، فأرسل اليها أولى مقالاته : «أصل الوهابية» ، وأصبح ذلك سبيله الى الشهرة ، حيث يقول في مذكراته : «وبكتابتي في هذه المجلة امتدت شهرتي»[١] .

بهذا خرج الشاب من نطاق إقليم ضيق محدود هو الشام ، الى إقليم واسع كان معدن الصحافة وموضع الثقافة ومصنع الكتابة ، وهو مصر . وهذا الذي نقل الشاب من ميدانه الاقليمي الى جوار الأعلام المشاهير .

في مصر

ولا شك في أن آفاق سوريا ضاقت في عيني محمد كرد علي فطمح الى آفاق كبرى ، وحلق خياله في سماء الغرب ، لما كان يقرأ منذ طفولته عن أخباره وآثاره ، فأحب أن يزوره ليعب من ثقافته ، وأعرب عن هذه الأمنية في صدر كتابه «غرائب الغرب» : «كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوربا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر ، للتوفر على دراسة حضارة الغرب من منبعثها ، واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المتزهون ، والعلماء العاملون ، والساسة المستعمرون ، والقادة الغازون ، والتجار والصنّاع والزراع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها»[٢] .

ولذلك قرّ رأيه على مغادرة بلاده الى باريس لقضاء بضعة أشهر للدرس والنظر ، ولا عجب في أن يقصد باريس دون غيرها من العواصم ، فقد تأثر بما قرأ في

(١) المذكرات ٥٢ .
(٢) غرائب الغرب ٤ .

الفرنسية من غير شك ، وأُخذ بجمالها وروعتها بما تلقنه في العازارية وغيرها عن أساتيذه . وسافر سنة (١٩٠١) وهو في السادسة والعشرين .

ودخل مصر ، ونزل بها أياماً يرحل بعدها الى عاصمة الفرنسيين ، ولكن أصحابه في القاهرة عرضوا عليه البقاء ، وحدثه صديقه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا[1] صاحب المنار أن يحرّر في جريدة «الرائد المصري» لصاحبها نقولا شحاده ، وهي نصف أسبوعية نقبل . وكانت هذه الجريدة تنال من أصحاب المقطّم بتشجيع المؤيد ، وكان صاحبها جاهلاً بالعربية ، ومع ذلك ظلّ محمد كرد علي يحرّر فيها ، فقد كان يستمتع بصحبة المصريين من العلماء ، وينتفع بالكتّاب من النازلين في أرضها ، فتعرّف الى محمد المويلحي وابنه ابراهيم - وكانا يحرّران «مصباح الشرق» - والى الشيخ محمد عبده ، وكان يدرّس في الرواق العباسي بالأزهر ، فحضر الشاب دروسه في التفسير مرتين في كل أسبوع ، وغشي مجلسه الخاص بـ «عين شمس» مرة في الأسبوع ، فتعرّف الى جماعة من الفضلاء والعلماء ، وانتفع في الاستماع اليهم ، كما انتفع بذلك الشاعر محمد حافظ ابرهيم .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد سجّل في مذكراته هذا الاعتراف فيما بعد قائلاً : «وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات من أعيان الأمة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم»[2] . وكان الفضل في تقديمه الى الفضلاء من المصريين لصديقيه : رفيق العظم والسيد محمد رشيد رضا .

وقد ذكر كثيراً من المصريين والسوريين تعرّف اليهم ، وكلّهم في الأعلام المشهورين ، خلّفوا صفحات نيّرة في حياة العصر الفكرية والأدبية ؛ أمثال : قاسم أمين ، وفتحي زغلول ، ابرهيم اليازجي ، يعقوب صروف ، فارس نمر ، حافظ ابرهيم ، خليل مطران ، عبد العزيز فهمي ، جرجي زيدان ، علي يوسف ،

(١) المذكرات ٥٥ .
(٢) المذكرات ٢٥١ .

مصطفى كامل ، سليمان البستاني ، أحمد تيمور ، أحمد زكي ، ولي الدين يكن ، شبلي شميل ، وغيرهم كثير من المعاصرين .

ونحن إنما بسطنا هذه الأسماء ، وأفضنا بعض الافاضة في تعدادهم لننتهي الى أن الرجل دخل جامعة أدبية فكرية واجتاز المرحلة الأولى فيها ، فتكونت ثقافته ، وقويت معرفته ، وأخذ من كلّ بطرف ، فعوضت عليه سني الدراسة العالية – كما نسميها الآن – وكفته مؤونة الشهادة العليا والألقاب الجامعية وما اليها من تهيؤ ومحاضرات ، ولا ريب في أن هذه المحاورات والمجالس كانت أشبه بالمحاضرات العامة ترهف العقل وتغني الثقافة .

ولعل مشاهدة الأعلام والاجتماع اليهم تزيد في ثقافة القارئ ، وتكسبه بالحسّ تجربة ومعرفة . والرجل نفسه يعترف بهذا الأثر في مذكراته : « ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة »(١) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولسنا نتطرّق الى وصف البيئة في مصر ، وحال السياسة والخطابة ، وقيام الدعوة الى الوطنية والاستقلال ، وما كان في الصحف المصرية الكبيرة من أدب وبيان ، لنشير الى أثرها في أدب الشاب وفي روحه ، فلذلك كتب يحسن الرجوع اليها (٢) في فهم العصر والمصر والأثر .

عودته الى دمشق

وعلى كلّ ، لم يطل مقام الرجل في مصر ، فقد سلخ عشرة شهور فحسب ، قام بعدها وباء في القطر ، اضطر محمد كرد علي إلى الرحيل عنها فهجرها الى دمشق ، وعاد الى وسطه الضيّق ، يتحمّل عنت الحكام ، وجهل الجهلة ، وحسد الحاسدين ،

(١) خطط الشام ٤١٣/٦ .

(٢) نضرب لذلك مثلاً كتاب أنيس المقدسي في العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث ، وكتاب عمر الدسوقي في الأدب الحديث ، وكتاب عبد الرحمن الرافعي « مصطفى كامل » مصر سنة ١٩٥٠ .

ولعله صرّح إثر عودته ببعض الآراء الإصلاحية التي حملها معه من مصر، ونثر بعضاً من الأفكار الاجتماعية، فحملها الجواسيس والوشاة، ممن يتصيّدون الغائب بعد أوبته بتصريح أو تلميح، وانتقلت الى آذان السلطة الحاكمة، فضايقته وراقبته، ورأت أن تتخلص منه بالسجن أو بالإبعاد.

لذلك ألصقت به تهمة الطعن على أحد الأعيان، أو كتابة المناشير ضد الوالي، وشرّدته عن داره أياماً، قضاها مختبئاً في قرى الغوطة، في خوف وذعر، وصفها صديقه الأمير شكيب أرسلان [1] بقصيدة طويلة نروي منها:

فكم في الزوايا تخبأ فتى طريد الكتاب شريد القلم
ونحو « المليحة » رام الخفا وكم بالمليحة من متهم
وكم ذا بـ « جسرين » من ليلة على مثل جمر الغضا في الضرم [2]

وزاد هذا التضييق حتى ذاع في الأسماع أنه منفيّ الى رودس أو الى فزان، فسئم التخفي، وتحمّل ثانيةً الى مصر، وهو في الثلاثين من عمره تقريباً.

في مصر سنة ١٩٠٥

دخل مصر، فتولى تحرير جريدة « الظاهر » [3]، وهي يومية صاحبها السيد محمد أبو شادي، وأصبح بعد قليل رئيس تحريرها. وأصدر معها مجلة « المقتبس » الشهرية، وطبعها بمطبعة الظاهر، وراجت المجلة في الناس. وحين توقفت جريدة الظاهر [4] طفق يترجم روايات عن الفرنسية لمجلة « مسامرات الشعب » وصاحبها خليل صادق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) قامت بين الراحلين صداقة متينة، وشابها بعض الكدر حين رشحت بعض المراجع الأمير شكيب أرسلان الى رئاسة المجمع، كما في المذكرات ٢١٨ – وفي مذكراته ١٠١٦ يقول: إن المجمع قرر أن يستعاض عن تأبين الأمير شكيب بكتاب يؤلفه أحد الأعضاء في سيرته السياسية والأدبية، ولكن هذا الكتاب لمّا يصدر بعد، على شدة وفاء الأمير للراحلين من أصدقائه كأحمد شوقي، ورشيد رضا، ونحن في سبيل انجاز كتاب عنه يصدر قريبا.

(٢) انظر بقية ابياتها في خطط الشام ٤١٤/٦ .

(٣) المذكرات ٥٦ : « لمحمد بك أبي شادي » .

(٤) توقفت جريدة الظاهر لعجزها عن دفع الرواتب – المذكرات ٥٩ .

ودعاه بعدها صاحب « المؤيد » الشيخ علي يوسف للتحرير في جريدته ، وعليها قامت شهرته ، فهي الدعامة الثانية بعد المقتطف في تعريفه الى المصريين ، فدخل في صميم حياتهم ، وأصبح يعرف ما تقف عليه الخاصة فحسب . وشغفته البلاد حباً حتى قال : « وأصبحت في مصر كأني في بلدي تهمني من وراء الغاية سياستها وسيادتها »(١) .

وظل يحرر في « المؤيد » ، وتنتشر مقالاته فيها ، وكانت لسان حال العالم الاسلامي الواسع ، فعرفه القاصي والداني ، وغدا ملء الأسماع وموضع الرعاية ، وحقق حلماً من أحلامه .

وجارى في « المقتبس » ما كان عليه الغربيون من نشر البحوث العلمية والأدبية والتحقيقات التاريخية ، فكان ينقل عن مجلات العالم أنباء في العلم والحضارة والتقدم والاختراع . ويكتب في أعلام المشارقة والمغاربة ، ويعرب روايات عدة عن الفرنسية ، وينشر الى ذلك كتباً قديمة عن مخطوطات قديمة نادرة ، فهو بذلك جمع بين القديم والحديث ، وهذا أثر آخر من آثار دراسته الأولى ، فقد تثقف على الشيوخ فأحب المخطوطات والكتب القديمة ، وأخذ من الصحف خلاصات الأنباء والآراء الغربية .

ومجموعة مجلة المقتبس من أنفس ما تذخر به مكتبتنا العربية الحديثة في علوم اللغة والأدب والتاريخ ، إلى مقالات في الرحلة ووصف المخطوطات في عواصم الشرق العربي ، وقد بلغت تسع مجلدات في (٦٥٠٠ صفحة) صدر ثلاث منها في مصر وسائرها في دمشق .

ومن أراد أن يعرف الموضوعات التي طرقها الرجل في جريدة « الظاهر » و « المؤيد » و « المقتبس » يستطيع أن يرجع إلى كتبه فانه واجد فيها نصوص

(١) المذكرات ٥٩ .

أكثر هذه المقالات ، وبها يحكم على ذوقه في النقد ، وسعيه في الاصلاح الاجتماعي وحبّه للقديم من تراثنا ، ووقوفه على كتب الغربيين في الاجتماع والرواية والقصة .

في سوريا لبث محمد كرد علي في مصر حتى سنة ١٩٠٨ ، فلما أعلن القانون الأساسي ، وسقطت دولة الاستبداد ، ظن الناس خيراً بالدولة العثمانية ، فتحمّل الرجل الى وطنه ووصل دمشق ، فأنشأ فيها مطبعة ، وأصدر « المقتبس » اليومي ، وهي أول جريدة يومية صدرت في دمشق [١] وهو في الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً .

وكانت هذه الجريدة تكتب في الثقافة العامة ، والأدب ، والسياحة ، والشعر ، وتنشر مقالات في وصف المدن السورية ، ورسائل من الغرب . وتجد فيها آثار الأعلام في الشام والعراق ومصر كرفيق العظم ، وعبد القادر المبارك ، ومعروف الرصافي ، والزهاوي ، وشوقي ، وغيرهم من رجال لبنان والمهجر ، في صفحات أربع واسعة كأنها من جرائد اليوم قوة في التحرير ، ومتانة في التعبير ، وسعة في الأخبار . وهي تنقل عن أختها المقتبس الشهرية وعن غيرها ، أو تعير بعض مقالاتها للمقتبس الشهري ، وكان يعينه في إدارتها أخوه الأستاذ أحمد كرد علي .

وقد عانت الجريدة كثيراً من جراء الصراحة والحرية ، والنقد [٢] ، فقامت السلطة لإيقافها أو تخفيف حدّتها ، فحاولت ذلك باللين حيناً والتهديد أحياناً ، وأقامت الدعاوى المختلفة ، وقد عرفنا أن الأستاذ فارس الخوري كان يرافع عن زميله وصديقه محمد كرد علي ، ورأينا من أخبار هذا الدفاع في جريدة المقتبس .

(١) المذكرات ٦١ .

(٢) في خطط الشام ٤٢٢/٦ يقول العلامة محمد كرد علي : « كان مذهب المقتبس معاونة الحكومة بالمعقول ، وانتقادها عند الاقتضاء ، وفتح الصدور للمدنية الغربية » – وكذلك المذكرات ٦٣ .

واشتدت السلطة بعد ذلك ضد الرجل [١] ، فهددته بالاغتيال ، ثم عمدت الى إغلاق جريدته ، وترصد الوالي في القبض عليه .

في الغرب سنة ١٩٠٩

لذلك هرب الرجل من دمشق ، وبلغ لبنان [٢] ، وركب منها البحر الى فرنسا ، وقد بسط تفصيل الرحلة في كتبه ، فكأنها أقرب الى الخيال لشدة ما لاقى من عذاب ، وهول ما صادف من تخفّ ، حتى لكأنه ، وهو يروي خبرها ، كان يرى في كل شخص عيناً ، وفي كل زاوية رصداً .

وبلغ باريس - وهو في الرابعة والثلاثين - فزار معالمها التاريخية ومؤسساتها الثقافية ، وخص المجمع العلمي الفرنسي فيها بوصف مسهب قال فيه :

« وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية ، وقلت : هل يكتب لنا المستقبل تأليف مثل هذه المجامع ، فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين ، أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين » [٣] .

ونحن نرى في هذه الجملة نواة لتفكيره بإنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، فقد صرح في تقاريره بعد عشر سنوات ، أن المجمع في دمشق وضع على غرار المجمع في باريس . فالرجل كان يرى لبلاده أن تأخذ أحسن ما عند الغرب ، ولعله حين سمى جريدته ومجلته بـ « المقتبس » كان يؤمن بالاقتباس من العرب القدماء والغربيين المحدثين على السواء ، تجمع على صعيد واحد أمجادنا القديمة الموروثة وأمجاد الغربيين المكتسبة .

---

(١) دخل محمد كرد علي في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة ، ثم فهم أن مرامي الاتحاديين تتريك العناصر ، فألف كتلة من العرب والترك سماها « حزب الحرية والائتلاف » ثم حل الحزب - خطط الشام ٤٢٢/٦ .

(٢) المذكرات ٨٦ - ويتحدث الكاتب أمين الريحاني عن زيارة العلامة كرد علي وهربه الى الفريكة في كتابه ملوك العرب ١٠/١ فيقول : « أقام محمد كرد علي عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان » .

(٣) غرائب الغرب ١٠٦/١ .

ورأى في هذه الرحلة مكتبات ومتاحف وكنائس ودور تمثيل ، وعاد من باريس الى الأستانة ودمشق فوصلها سنة ١٩١٠ ، وهو يحمل في صدره صوراً للحرية ، وعلى أطراف قلمه آيات للعمل والسعي ، فأطلق الاتحاديون جواسيسهم وأعوانهم ، يهددونه ليكمّ فمه ويسكت عن هذه الثورة الفكرية التي كانت تضطرم في قلبه . ولعله ملَّ ذلك كله ، وسئم الصحافة ورأى أن يهجرها الى غيرها من الصناعات وقد جاوز الخامسة والثلاثين من عمره .

قبيل الرحيل
سنة ١٩١٣

حدثنا الرجل من قبل أنه حين قصد مصر سنة ١٩٠٦ ، نصحه صديقه جرجي زيدان بأن ينقطع عن السياسة إلى مجلته يعمل للعلم والبحث ، وحدثنا كذلك أنه حين زار مصر سنة ١٩٠٨ نصحه صديقه يعقوب صروف أن يقتصر على المجلة وأن لا يدخل في السياسة . والرجلان على قدر عظيم من العلم والذكاء والبحث والتحقيق ، وقد أدركا أن الأستاذ محمد كرد علي لم يخلق للصحافة اليومية والعمل السياسي ، وإنما هو بالبحث ألزم وبالتحقيق أحقّ . وكأنما عرفا من خلق الرجل في عصبيته وصراحته وشدة ذكائه ما يجب أن يعد لمستقبله وما يتخذ لعمله .

وقد حاول أن يكون صحافياً خلال عشرين عاماً يعيش من قلمه ، في حكومة تحارب القلم ، ويروج بعلمه في سلطة تقتل العلم ، لذلك ضاقت نفسه بحياته : تهديد إثر تهديد ، ورحلة بعد رحلة ، فما يظهر إلا ليختفي ، وقومه في تباغض وتحاسد ، والنوافذ مغلقة على النور ، والحياة أشبه بالسجن . لذلك آلى على نفسه أن يستمع الى هذين الصوتين القديمين ، وأن يعتمد على البحث والتحقيق ، فهو يزحف نحو الأربعين من عمره ، وله أن يكتب في تاريخ بلاده وخططها ومعالمها القديمة والحديثة وأنظمتها وحضارتها .

لذلك فكر في أن يرحل باحثاً لتأليف هذا الكتاب ؛ وقد وضع قبالة عينيه ما صنع الأمير « ليوني كايتاني » مؤلف تاريخ الاسلام الكبير ، ورأى أن يسافر اليه ، فعنده مكتبة منقطعة النظير في الغرب كله ، جمع فيها مصادر الإسلام

والعرب من مخطوط ومطبوع ؛ وصوّر لها كلّ ما في العالم من مخطوطة ترشده الى بحثه ، فلماذا لا يشدّ اليها الرحال ، ويصنع كالمستشرقين والغربيين ؟ !

في الغرب

وعلى هذا سافر من بيروت على باخرة تقلّه الى رومة ، وقد عرجت على الاسكندرية في طريقها ، فنزل في مصر ، ولما وصل رومة ، قصد الى مكتبة البرنس كايتاني وراح ينهل منهـا ، ويجمع مادة كتابه « خطط الشام » .

وتنقل بعد ذلك من ايطاليا الى سويسرة فالمجر ، ووصف أجمل ما في هذه الربوع في كتابه « غرائب الغرب » وخصّ بها أكثر الجزء الأول ، ثم عاد الى الأستانة ، فجنح الى وطنه [1] ، وآب الى دمشق ، لعله يستريح من سفر ، أو يستجم من تعب .

رحلات الدعاوة

وأين الراحة وأين القرار ؟ وقد دخلت الدولة الحاكمة في الحرب ، واسترخصت أرواح الناس في وجنّدت المفكرين للدعاوة لها ، وجمعت من الشام طبقة من العلماء والأدباء ورجال الدين وجملتهم وفداً الى الأستانة ليروا ويصفوا . وكان سفر الوفد ، أواخر سنة ١٩١٤ ، نخطب أعضاؤه ، ونظموا الشعر خلال الرحلة . فلما عادوا كلّف القائد جمال باشا أربعة منهم بتأليف رسالة عن الرحلة ؛ وهم : محمد كرد علي عن المقتبس ، ومحمد الباقر عن البلاغ ، وحسين الحبال عن أبابيل ، وعبد الباسط الأنسي عن الإقبال . وصدر الكتاب الصغير .

ثم رحل أنور باشا الى الحجاز ، وطلب الى محمد كرد علي أن يؤلف في الرحلة ففعل [2] وهو يقول بعد ذلك في الكتابين إنهما : « من كتب الدعاية السمجة في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) قبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر أوقف والي دمشق المقتبس ، وضايقته السلطة حتى أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام – انظر خطط الشام ٦/٤١٨ .

(٢) سافر العلامة الى المدينة المنورة وقضى فيها ثلاثة وعشرين يوماً – انظر المذكرات ٨٩ ، وارجع الى زبدة رحلته في المذكرات ٧٨٤ بعنوان : « في مدينة الرسول » ، وقد عدّد فيها المخطوطات ووصفها .

الحرب المقوتة » ، ويقول كذلك : « وأنا غير راض عن أكثر ما فيها وهما كتابان لغيري لا لي » .

وقامت في الشام جريدة « الشرق » وهي كذلك للدعاوة في سبيل تركيا وألمانيا فتولى رئاسة تحريرها مدة[1] ، وكان يكتب فيها نفر من الأدباء والكتاب .

ولعل الرجل ملّ من الحرب ومقالات الدعاوة السياسية ، ففكر في التجارة[2] والسفر الى الأستانة . ولما بلغ عاصمة العثمانيين حال الاتحاديون بينه وبين العمل بإيعاز من أحمد جمال باشا ، وقال : « ومنعوني من معاطاة أعمال لا أعرفها في الحقيقة » ، ولكنه اطلع في استانبول على خزائن دار السلطنة ومخطوطاتها النفيسة .

ولما سقطت دمشق بيد الحلفاء سنة ١٩١٨ ، عاد اليها بعد ثلاثة شهور من سقوطها ، لعله يصدر « المقتبس » ثانية ، لكن الحاكم العسكري أراد أن يصرفه عنها ، فجعله في رئاسة « ديوان المعارف » ـ وهو في الثالثة والأربعين تقريباً ـ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ديوان المعارف

وهكذا عاد الرجل موظفاً كما كان منذ خمس وعشرين سنة ، على أنه تسلّم منصباً في الثقافة يخدم به معارف أمته ، والمستوى العلمي في بلاده ، ومع ذلك « قبله متكارهاً »[3] كما قال ، وقد كان يرأس جملة من الشيوخ تعمل لتنقيح المفردات والنظر في المؤلفات ـ على حد تعبيره ـ .

وبذلك طلّق الصحافة ، وفارق هذه المهنة التي ألفها صبياً ، وأحبها شاباً ، وعمل لها خلال ربع قرن ، يتمرّس بها في أرفع الصحف العربية بدمشق

---

(١) في خطط الشام ٦/٤١٩ : « عهدت إليّ برئاسة تحريرها فوليته مدة » .

(٢) في خطط الشام ، بالصفحة نفسها : « وقصدت الى الأستانة للتجارة فمانعني الاتحاديون هناك » .

(٣) خطط الشام ٦/٤٢٠ .

والقاهرة ، وفي أرقى الأوساط الفكرية والأدبية ، فقد كانت له مدرسة رفيعة ، وجامعة راقية ، جمعته الى صدور المشارقة والمغاربة ، فأفاد من مجالسهم ، وانتفع بكتاباتهم ، ولكنه رأى آخر الأمر أنها حرفة شاقة ، ورأى أن السياسة متقلبة ، فآثر أن ينصرف الى التأليف والكتابة في المجلات العلمية [1] ، وأن يختم حياته الصحفية ، فقد أصبح صاحب رسالة فكرية سامية ، فيما يرى ، وقد جاوز الأربعين من عمره منذ سنوات .

* * *

في المجمع العلمي العربي

« ١٩١٨ — ١٩٥٣ »

في العهد الفيصلي

هذه الرسالة التي كان ينهض لها ويدعو اليها هي رسالة التأليف والتحقيق ، أحبها منذ تعرف الى شيوخه الجزائري والمبارك والبخاري ، وعرف تعلقهم بالقديم ونشره ، وأكبرها حين رأى المصريين ينشرون الكتب العلمية والنصوص القديمة ؛ ثم عشقها حين اختلف إلى مكتبة الأمير كايتاني ومكتبات المستشرقين ، وتعلّق بها حين زار المجمع العلمي الفرنسي بباريس .

ورأى أن تحقيق الكتب لا يكون في المجلات والصحف ، وإنما يجب أن تقوم بها هيئة رسمية ، أو مجمع علمي كمجامع الغرب ، فقد آن أن يعمل العرب للحفاظ على لغتهم ، بعد أن جلا العثمانيون عن سوريا ، وأشرق على البلاد فجر جديد ، وأصبحت الأمة في أعياد الاستقلال ، أمراؤها من العرب وضباطها من العرب ، فيجب أن تكون معارفها عربية ، ودروسها قومية ؛ فلِمَ لا يكون لسوريا مجمع علمي عربيّ ينقح المفردات ، وينشر المؤلفات ،

(١) المذكرات ٦٣ .

ويرسل المحاضرات ؟ وأبدى الرجل رغبته فوافق الحاكم العسكري في دمشق رضا باشا الركابي على ذلك ، في ٨ حزيران ١٩١٩ ، وانقلب « ديوان المعارف » برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة [١] ، وكان عدد الأعضاء ثمانية [٢] .

وقام المجمع بنصيبه في تقدّم العربية ونشر الثقافة ، برئاسة محمد كرد علي ، وانبرى أعضاؤه يحاضرون الجمهور في مختلف الموضوعات ، ويحققون المؤلفات ، ويسهرون على جمع المخطوطات ودراستها ووصفها . وعادت الى العادلية والظاهرية أمجادهما القديمة ، فشهدنا من جديد علماء الشام في القرن العشرين ، يعملون كأجدادهم لإعادة التاريخ الزاهر ، والمجد الغابر ، فما يزال يرنّ في سمع الزمان ما وقع فيها من أمجاد خلال ستة قرون ، من القرن السابع الى القرن الثالث عشر . ففي العادلية وضع المقدسي تاريخه كتاب الروضتين ، وعمل ابن خلكان تاريخه المشهور ، ونزل ابن خلدون ، ودعا ابن مالك النحوي الى دروسه ومحاضراته .

وهذا الزمان بعيد نفسه ، فقد استيقظت الأمة بعد رقاد ، وهبت بعد الاستعباد ، ونشطت من عقالها لتنشر في العالم دواوين الشعراء وكتب العلماء وآثار النحاة والفقهاء ، وقام المجمع العلمي في جدّ ونشاط خلال ثلاثين عاماً ما فتر ولا وهن يطبع النفائس ويجلو عرائس الفكر .

ومرت بالبلاد ثورات وسقطت وزارات ، وقامت حكومات مختلفة ، والمجمع قائم لا يتأثر إلاّ باللغة ، ولا يعمل إلاّ للثقافة يحاضر ويحقق وينشر ، ولسانه

---

(١) المذكرات ٢٧٧ .

(٢) لن نفيض في وصف المجمع العلمي هنا ، وانما نحيل القارئ المستزيد الى رسالة بالفرنسية ، ألفناها في المجمع وآثاره ومقالاته وكتبه ، يحسن الرجوع اليها ، وهي بالاشتراك مع المستشرق الأستاذ هانري لاووست عضو المجمع العلمي بدمشق ، ونشرت سنة ١٩٢١ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجلة راقية تحمل الخير والنور ، منذ ثلاثين عاماً حتى اليوم [١] ، وقد ماتت صحف أدبية ، وقضت منتديات خطابية ، وحلّت جمعيات ثقافية ، والمجمع ما يزال يبعث الإيمان بالماضي القديم ويرسل الإشعاع للمستقبل القريب .

واذا كنا بسطنا القول في المجمع ، فذلك لأننا نرى فيه جهد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ونشاطه ، فقد كان واسطة العقد وموضع الحركة [٢] ، يراسل المستشرقين ويكاتب المصربين ، في سبيل المجمع ، فكأنه قطعة من حياته ، أو كأن حياته قطعة من المجمع ، يدوّي صوته فيه كلّ صباح ، وتنعقد حوله الحلقات ، وتتصل فيها الأحاديث والنكات ، وتبرم فيها المشاريع والقرارات .

ولن نسترسل فيما وقع للرئيس خلال هذه السنين ، فقد حدّثنا عن ذلك في مرارة وأسى ، حين رأى منافسين ومبغضين وحساداً ، من الأفراد والهيئات ، فتجهّم له الزمان حيناً وهشّ له أحياناً ، ولقد قال في مذكراته : « لقيت الألاقي من الحكومات السورية في هذا المجمع العلمي كأنه كان بعض ملكي » [٣] .

في الوزارة

وقد اختير مرتين للوزارة ، أولاهما في ٧ أيلول ١٩٢٠ ، فزار خلالها أوربا للمرة الثالثة ، وطاف بلجيكا وهولاندة وانكلترة واسبانيا وألمانيا وسويسرا . وثانيتهما في ١٥ شباط ١٩٢٨ [٤] ، فسافر خلالها كذلك الى أوربا للمرة الرابعة وطاف انكلترة وفرنسا وبلجيكا ، وقد أربى على الخمسين يسافر بين العواصم ، ويتصل بالمستشرقين والعلماء ويزور المكتبات والمتاحف ، ويفيض في المحاضرات والمؤتمرات [٥] .

---

(١) حللنا أهم المقالات التي جاءت في المجلة ، في رسالتنا السابقة بالفرنسية .

(٢) بدأ المجمع بثمانية اعضاء ، وهم اليوم يبلغون القسمين : اعضاء عاملين ومراسلين .

(٣) المذكرات ٢٨٤ .

(٤) يقول في مذكراته ١٠١٥ : إن الكتلة الوطنية أبعدته فيما بعد عدة سنين عن منصبه لأنه قبل بدخول وزارة الحسني ، وقد عاد الى رئاسة المجمع سنة ١٩٤١ .

(٥) سافر العلاّمة الى مصر سنة ١٩٢٨ ، وقد انتدبه المجمع ليمثله في حفلة تكريم احمد شوقي بمصر — المذكرات ٢٩٧ .

وخلال هاتين الوزارتين أرضى أناساً وأغضب آخرين على عادة الحكم في ربوعنا ، فزاد في خصومه ، وهو يرى في الوزارة آنذاك رأياً يثبته في مذكراته ننقل بعضه : « وزارتنا وزارة متواضعة ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لوظيفة مأمور المركز » [١] في مصر .

وقد قام الرجل سنة ١٩٢٤ ، وهو في الخمسين من عمره تقريباً ، بتدريس الأدب العربي ، واللغة العربية نحوها وصرفها في معهد الحقوق بدمشق ، ولكنه انصرف عن التدريس لما وقع من دسائس ضده . وأنشأ خلال وزارته مدرسة الآداب العليا ، وهيأ الأسباب لافتتاح كلية الإلهيات ، فدلَّ على فهم ، وسعة أفق ، وعظيم اهتمام بالجيل الصاعد .

وكان الأستاذ الرئيس [٢] حين يستريح من سفر أو ينصرف من الوزارة ، يقبل على كتبه وصحفه ، يحقق آثار السلف الصالح وينشرها ، أو يجمع منها تاريخاً لبلاده ، أو جغرافية لبعض أقاليمها ، أو يصحّح ما يُرسل الى المجلة ، أو ينظر فيما يقدَّم الى المجمع من كتب ، وما يُهدى اليه من مطبوعات ، لا يقف ولا يتوانى ، حتى أثقل كاهله الجدّ والتأليف ، وأسقم عينيه تقلب المداد ، وكلَّ قلبه من الآثار والأسفار ، فقد أشرف على قمة من الكتب أخرجها للناس ، ومحاضرات جلاها للناشئين ، ومقالات دبجها في المجلة .

وقد انتخبه المجمع اللغوي بمصر عضواً فيه ، فكان يسافر خريف كل عام ، يناقش ويحاضر ، ويزور ، ويكتب ويؤلف ، حتى منعه أطباؤه من السفر ، فحيل بينه وبين إخوانه في مصر أحبهم وأكبرهم ، رغم سعي السعاة ووشاية الواشين ، وزاد في ذلك قعوده عنهم وبعده منهم ، فتألم وتحسر ، وذكر مرتع صباه ومصنع عبقريته وجهده ، في حنين موجع وأسى بالغ .

(١) المذكرات ٤٥٤ .

(٢) كان احب الالقاب اليه لقب الأستاذ الرئيس ، انظر المذكرات ص ٧ .

وكان قلبه خلال السنوات العشر الأخيرة ـ وهو يزحف الى السبعين ـ يتأثر بالعلة، ويأبى أن يتحمَّل فوق ما حمل، يريد أن يقف ويريد له صاحبه أن يسير في الطريق ليعمل في الثقافة والتأليف ونشر كتبه المخطوطة وإعادة ما طبعه منقحاً مزيداً فيه، ولكن القلب أبى أن يستمهل، فوقفت نبضاته يوم الخميس في ٢ نيسان ١٩٥٣ وهو في السابعة والسبعين.

وشيعته البلاد، وبكاه الكتاب والنقاد، وأبَّنه على قبره الأديب القانوني معالي الدكتور منير العجلاني باسم المجمع العلمي العربي فقال: «إن ثمة امارتين في العالم العربي: امارة الشعر وكانت معقودة اللواء للمرحوم احمد شوقي، وامارة العلم وكانت معقودة لفقيدنا العلامة محمد كرد علي»، ثم قال: «إن الفقيد كان رائداً وقائداً ومعلماً ومرشداً، وله أوليات خالدة، فهو أول من أنشأ مجلة أو جريدة في الشام، وهو أول من أنشأ المجامع العلمية».

ودفن الفقيد الغالي في مقبرة الباب الصغير بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان في دمشق التي أحبها وعمل لها، ورفع منارتها عالياً، وسيِّر ذكرها بين الناس في القرن العشرين.

وافتقده المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد رباه الرئيس الراحل جنيناً، ورعاه خمسة وثلاثين عاماً، لم ينقطع عنه إلا لماماً، فقد كان بيته وكان كعبته.

* * *

ثقافته وأسلوبه

كلف محمد كرد علي منذ صباه بمطالعة الصحف، وتعلق باللغة الفرنسية في شبابه، فنظر في الكتب الغربية، ثم أخذ على شيوخه نقرأ الكتب القديمة، وقد بسطنا ذلك من قبل. ولكننا لم نقص خبر هذه الكتب التي قرأها لنقف على مبلغ دراسته ومدى ثقافته، فليست الدراسة في عدد السنين على مقاعد الدرس، وليست الثقافة في صورة الشهادة ورنين اللقب، وإنما هي في قراءة

الكتب الأمهات التي تكوّن العقل ، وفي مبلغ هضمها واستساغتها والافادة منها .

والأستاذ الراحل وصف لنا ثقافته وعدّد لنا قراءاته فكفانا مؤونة الحدس ، قال : « وأهم ما أولعتُ بمطالعته - بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي ، وجانب من المخطوط الذي عثرتُ عليه - كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأحوال الشعوب ومدنياتهم . وطالعتُ بالافرنسية أهم ما كتبه ڤولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وبنتام ، وسبنسر ، وفوليه ، وتين ، ورنان ، وسيمون ، ... وتدارستُ المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية . وجريتُ منذ نشأتُ على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب ، وقلما دوّنتُ موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي » [1] .

ذلك ما قرأ من كتب الغرب ، نقلنا بعضه كأنموذج على سبيل المثال لا الحصر والاستقصاء ، ومنه ندرك سعة أفقه ، ومسرح خياله ، فهو قد أطل على الفلسفة الغربية وعلم الاجتماع من خلال الكتب الفرنسية ، وزادته الرحلة الى الغرب فهماً واطلاعاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الكتب العربية التي قرأ فيها ، فقد ذكر جانباً منها قال : « وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره ، أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ، ورسائل الخوارزمي والصابي ، وتاريخ اليميني للعتبي ، والزمخشري والأصفهاني ... ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية أنشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ، ككتابات الجاحظ وابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وسهل بن هرون ، وأبي حيان التوحيدي » [2] .

ثم أفاض في ذلك فرسم لنا قراءاته ، يريد أن يدلنا على الطريق التي سلك والكتب التي تأثر بها أسلوبه وكتابته ، قال :

(١) خطط الشام ٤١٣/٦ .

(٢) مجلة المقتبس ، المجلد الرابع ، سنة ١٩٠٩ ص ٥١٠ .

« إني أتلو القرآن بتدبر ، قرأته على أساليب مختلفة لتفهمه وتمثل بلاغته ، وإني طالعتُ طرفاً صالحاً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وحفظت المعلّقات السبع وطرفاً صالحاً من دواوين العرب ، وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي ، وعدّة قصائد لعمر بن أبي ربيعة ، والبحتري ، وأبي تمام ، والرضيّ ، وابن الرومي ، والطغرائي ، والأرجاني ، والمعرّي ، وعلي بن عبد العزيز ، وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين .

« وتدارست الكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والتاريخ اليميني للعتبي ، والمثل السائر لابن الأثير ، واستظهرتُ أشياء كادت تفسد عليّ ملكتي مثل مقامات الحريري ، ورسائل الهمذاني ومقاماته ، ورسائل الخوارزمي وبديعية النابلسي .

« وما أخرجني من تكلّف النسج على منوال المتأخرين كالقاضي الفاضل ، والصابي ، وابن الأثير ، إلاّ الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي ، أما ما وصل إليّ مما كتبوه وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع ، فقد قرأته مرات ، ولا أزال أقرؤه »(١) .

هذا ما سجله الرجل في كتاب صدر قبيل وفاته ، جعل فيه زبدة قراءاته وخلاصة أدبه ، ليشير في وضوح الى عزوفه عن الأسلوب المنمق وكتابة السجع ، وتعلقه بالسهل الممتنع ، وهو يقول في محل آخر : « وعمدتُ الى الكتابة المرسلة بدون تكلّف الأسجاع والازدواج »(٢) .

وقد روينا أمثلة كثيرة من أساوبه خلال حديثنا عنه ، نستشف منها الرقّة في الأسلوب من غير تفخيم ، والسهولة في التعبير من غير تكلف ، فهو يتحدث حديث الراوي والقاصّ ، ويكتب كتابة المترسّل المحدث ، فلا يزاوج بين الجمل ولا يتكلف الكناية والاستعارة والجناس والسجع ، وإنما يرسل نفسه على

(١) المذكرات ١١٩٣/٤ ، سنة ١٩٥١ .
(٢) المذكرات ٣٠٧ ،

سجيتها ، يكتب في جمل تطول حيناً وتقصر حيناً ، تُعنى بالمعنى أكثر من اعتدادها بالمبنى حتى لتشبه الأحاديث المبسوطة والرسائل المكتوبة .

وقد يشتط الخيال وتجمح الذكرى ويفيض الشعور ، فينشئ في جمل مقتضبة وعبارات متراصة ، وذلك حين يذكر الشباب ، أو يرمم الشيخوخة ، أو يأسى للعمر ، أو يصف الغوطة .

والأستاذ الرئيس قد يتخير اللفظ ويسعى له وذلك حين يكتبُ في تحليل الأدب فحسب ، فيؤثر بعضه على بعض . وأقرب الألفاظ الى نفسه ما وقع في كتب القدماء ، أو ما سهل على الأذن ورق على السمع ، يريده لنفسه ، ويطلبه لزملائه . وما أذكر أنه قرأ مقالة للمجلة أو بحثاً للنشر إلا أعمل قلمه في إصلاح بعض المفردات والتراكيب مما لا يروقه أو لا يستحسنه . وقد يزيد في التهذيب حتى يحذف المديح الفائض ، لا يخاف ولا يتردد ، ولا يحسب للكاتب في ذلك حساباً مهما علت مكانته وسمت مرتبته ، فهو نقّاد جريء لا يخاف في اللغة لومة لائم .

وتغلب على مقالة الرئيس ومحاضراته فكرة الاستقصاء ، فيسترسل في ذكر المصادر والكتب والمؤلفين ، فكأنه يستوعب في فكره كل شيء ، أو كأنه يريد أن يذكر كلَّ ما يعلم ، فيتدفق بفيض غزير وعلم كثير ، يعرض خلاصة ما رأى وما قرأ وما سمع .

وقد نُشرت في مصر كتبٌ اختارت من أسلوبه ، وجعلته بين « مشهوري أدباء الشرق » ، وقرنته في صعيد واحد الى العقاد ، وطه حسين ، ومطران ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، والمنفلوطي ، والرافعي ، وولي الدين يكن ، وقاسم أمين [1] ... وروت من نثره وشرحه ، فهو وحده بين جمهرة المصريين يمثل الشام ، وهو وحده رفع لواءنا في دولة الأدب .

(١) انظر « أشهر مشاهير أدباء الشرق » ، وضعه محمد محمد عبد الفتاح ، ونشره في مصر ، بغير تاريخ ، على جزءين اثنين - وانظر كذلك في « الأدباء الخمس » جمعه اسماعيل عبد الحميد ، ونشره في مصر ١٩٢٥ .

كتبه ودراساته

بهذا الأسلوب أنشأ الأستاذ الرئيس كتبه ، وقد درج مع الزمن فسار صعداً ، واتبع سنة التطور . ونحن نستطيع أن نقسم آثاره الى أربعة أقسام :

أ — كتب مترجمة ومعربة .

ب — أدب المقالة .

ج — دراسات تاريخية وأدبية .

د — تحقيق الكتب .

أ — كتب مترجمة ومعربة :

كلف الشاب بالعربية والفرنسية معاً - كما قلنا - وبدأ أول الأمر يترجم روايات برمتها عن الفرنسية ، فنشر « قبعة اليهودي ليفمان » سنة ١٨٩٤ ، نثر بعضها وأعانه في صنع قسم منها أستاذه السيد محمد المبارك وسماها « يتيمة الزمان » ، وقد تناولها بعض النقاد بكلام جارح ، نشره في الصحف .

ثم ترجم في مصر « الفضيلة والرذيلة » تأليف (جورج أونه) الفرنسي المعاصر ، ورواية « المجرم البريء » وذلك في سنة ١٩٠٧ ؛ وعرّب تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس بمصر سنة ١٩٠٨ .

وهذه الكتب تعدُّ في عبث الشباب ، تمرّن بها على طريقة الترجمة ليفيد من اللغتين ويزيد من ثروة مفرداتها ، وقد كان المترجم لا يعتد بها ، فقال في أحدها : « يا ليتني نبذتُ رواية يتيمة الزمان في زنبيل سقط المتاع » .

وقد عرّب كتباً أخرى في الحرية لجول سيمون ، ونشر فصولاً منه في المؤيد بمصر ، وترجم الأسماء التركية لرضا باشا ثم طواه .

ولولا أمانتنا في إيراد كلّ ما كان لحياته لأهملنا ما وقع من قلمه في الترجمة ، فهو نفسه يقول : « وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لأنها مترجمة »[1] .

(١) المذكرات ١٠٤٦ .

ب — أدب المقالة :

نشر كاتبنا مقالاته في الصحف اليومية والأسبوعية ، بمصر والشام ، وأرسل محاضراته في مصر وسوريا والأستانة ، ثم جمع بعض ذلك [1] في كتبه ، كما فعل الكتاب المصريون المحدثون كالعقاد والمازني والزيات والرافعي وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل ، وهو في هذا لا يختلف عنهم ولا يختلفون عنه ، فقد نبغ فيهم وعاش معهم ، وفعل مثلهم ·

وقد جعل كتبه على الموضوعات ، في الرحلة أو الاجتماع ، أو حياته الخاصة ، وطبعها بالعناوين التالية :

١ — غرائب الغرب [2] (١٩٢٣) جمع فيه وصف رحلاته الثلاث الى أوربا ، وهو طريف في أسلوبه ، يجمع المشاهدة والعيان الى النقول والمصادر والوثائق · فهو يصوّر فيها ما رأى وما سمع وما قرأ ، في إنشاء جميل يحوي الأدب والاجتماع والتاريخ والاقتصاد ، ويشمل في أوصافه القصور والمؤسسات والجامع والمتاجر ، والأخلاق والتقاليد ، ويوازن أبداً بين الغرب والشرق ، يتمنى لقومه خير ما يرى عند الغربيين ·

٢ — القديم والحديث [3] (١٩٢٥) : وفي هذا الكتاب مقالاته التي نشرها في المقتطف والمقتبس والمؤيد والظاهر ، يجمع بينها حديثه عن العادات والآداب والتقاليد ، ينهل من مصادرنا القديمة وينقل عن الكتب الغربية وصحف أوربا · وقد كان الأستاذ الرئيس يرضى عن هذا الكتاب ·

(١) ما تزال بعض مقالاته ومحاضراته مخطوطة لم تطبع ، وكان ينتظر أن يمدّ في اجله ليطبعها بنفسه ، فكان يعلن عنها في ختام كتبه ، وهي : « المقالات ، المحاضرات ، الكناش » وأعلن عن بعضها الآخر في خطط الشام ٦/٤٢٤ وهي : « حرية الوجدان ، الحرية المدنية ، الحرية السياسية معربة عن جول سيمون » ·

(٢) جزءان في ٦٤٠ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٢٣ ·

(٣) جزء واحد في ٣٤٦ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٢٥ ·

٣ — أقوالنا وافعالنا [١] (١٩٤٦) : وصف فيه الأخلاق والعادات التي تعيش بيننا ، وانتقد أخطاءنا وأعرب عن سوءات عيوبنا ، ورسم لنا سبل الإصلاح . ووازن بين حاضرنا وحاضر الغرب ، فهو صورة للشرق العربي في صدر القرن العشرين ، كتبه على شكل بحوث قصيرة ومقالات ، تنم عن خبرة وتجربة وسعة قراءة وعظيم اطلاع . ويبدو أنه فكر فيه قبل عشرين عاماً تقريباً ، فأراد له عنواناً : « أخلاق المعاصرين » [٢] .

٤ — المذكرات [٣] (١٩٤٨ — ١٩٥١) : راج أسلوب المذكرات في العصر الحاضر على غرار الآداب الغربية ، مما كتبه روسو وغيره ، فأصدر الدكتور طه حسين « الأيام » ، والمازني رسم حياته في كثير من فصول كتبه ، وانشأ أحمد أمين وغيره في تقليد هذا الطراز . أما الأستاذ كرد علي فقد عاش في بيئات مختلفة ، ورأى دولاً عدة وأقطاراً متباينة ، فرسم حياته وما وقع له خلال هذه الحياة في الشرق والغرب على شكل مقالات ، لا يربط بينها إلا أنها من ذاكرته . وقد تحدث فيها عن أسفاره ووزارته ، وهجرته من الشام وموقف الحكومات التركية والفرنسية والانكليزية وعملائها منه ، وما صنعه في سبيل بلاده ، وما يؤخذ عليه من أخطاء .

والكتاب صريح جريء يصف ما للرجل وما عليه . وهو شبيه بمذكرات الغربيين لولا أنه غير مرتب على التاريخ وليس مبوباً على الموضوعات ، فكأنه مجموعة أفكار تعرض له فيمليها ويرسلها الى المطبعة . وقد فضح الكتاب أسماء كثيرة ، ومدح شخصيات عجيبة ، وغلبت عليه العاطفة ، فقد بدأ بتدوين هذه المذكرات حوالي سنة ١٩٣٨ ، وسنه قد زادت على الستين ، وذاكرته ما تزال قوية تسجل دقائق الأشياء ومنسي الألوان ، وشتيت التفاصيل والملاحظات .

(١) جزء واحد في ٤٢٧ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٤٦ .
(٢) انظر خطط الشام ٦/٤٢٤ .
(٣) اربعة اجزاء في ١٣٢٠ صفحة ، نشر بدمشق سنة ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

وقد انقسم الناس في هذه المذكرات الى محبذ ومستنكر، لغلبة الهجوم فيها على بعض السياسيين والحزبيين من رؤساء ومرؤوسين، ولكنها تنفع المؤرخ وتفيد الباحث، فتفصّل ما أهمل تاريخه الكبير، وتتوسع في تصوير العصر، فكأنها تتمة لخطط الشام، وتاريخ لصدر القرن العشرين على أسلوب المذكرات. أما الهجاء فيذهب مع الريح، وتبقى الصور الحقة في أمور الدولة العثمانية وأسرار الانتداب ومزايا الاستقلال، وفي موقفه من هذه العهود جميعاً، وقد لخص ذلك بقوله: «ولا أمثل لما يدعوني الى معاناة ما أعاني إلا بمسألتين، صرفت فيها جانباً من اهتمامي منذ وعيتُ على نفسي، وهما الاستثمار التركي ببلاد العرب، والاستعمار الافرنسي في بلاد الإسلام».

وظل يكتب في المذكرات حتى أواخر أيامه، ووعد أنه لا ينثني عنها قائلاً: «ما دمت أتمكّن من مسك القلم، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها». وكان وفياً للوعد ما وفت له الأيام، وكان على أن يظهر الجزء الخامس أو السادس بعده لو عاش لها، ولكن العمر قصير والزمان غادر، فسكت لسانه عن إكمال ما بدأ به، ووقف بيانه عن كشف سائر المؤامرات التي حيكت ضدّه خلال حياته الطويلة.

٥ — البعثة العلمية الى دار الخلافة الإسلامية (١٩١٦) (١).

٦ — الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية (١٩١٦) (٢).

وهذان الكتابان صورة من صور الدعاوة للدولة الحاكمة، كتب فيها الأستاذ كرد علي مقالات تمليها المناسبات الحربية، لا ترتفع الى مستوى أدبه، ويبدو عليها طابع خاص يرى فيه هو نفسه: «دعاية سمجة» فهذان الكتابان لا يقعان من مؤلفاته موقع الحب والاصالة.

(١) تأليف: محمد الباقر، ومحمد كرد علي، وحسين الحبّال، وعبد الباسط الأنسي، بيروت ١٩١٦ في ٢٩٦ صفحة.
(٢) طبع في بيروت سنة ١٩١٦ في ٣٠٠ صفحة.

جـ — دراسات تاريخية وأدبية :

أنشأ الأستاذ كتباً في الأدب والتاريخ ، تعدّ مصدراً للشادين في مطلع القرن العشرين ولا تزال وحدها دلالةً على انتاجنا في هذا الباب .

٧ — خطط الشام (١٩٢٥) : أراد المؤلف أن يكتب تاريخاً سياسياً ومدنياً مطولاً للديار الشامية على عادة المستشرقين والعلماء الغربيين ، فسافر إلى خزانة الأمير كايتاني بروما ، ولبث فيها يبحث خلال شهر كامل مدة ثلاث ساعات في الصباح ، يتزود من مصادرها حتى كانت له مادة واسعة . وسافر بعدها الى ربوع الغرب يطوف مكتباتها لاستكمال بحثه ودرسه ، حتى أنفق في ذلك قرابة ألف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهباً ، وعمل له خمساً وعشرين سنة ، طالع خلالها زهاء ألف ومائتي مجلد [1] باللغات العربية والتركية والفرنسية . وقد أخرجه في ستة أجزاء واسعة .

وقد بحث في هذا الكتاب تاريخ الشام ، ونظمه الاسلامية ، والحضارة القائمة فيه على مرّ الأزمان ، والدول التي تعاقبت على الأرض ، والحالة الأدبية والاقتصادية خلال هذه الحقب . ولما انتهى منه تنادت لجنة من فضلاء الشام [2] فجمعت لطبعه ألف ليرة عثمانية ، ونشرت منه ألفي نسخة . وقد كان وحده مصدر التاريخ في بلادنا ، فهو يحوي ما تفرق من المصادر والكتب ، ينقل عنها أحياناً نصوصاً كاملة ، وأحياناً يختصر منها ، فكأنه جمع المؤرخين على صعيد واحد . وقد كلّف زملاءه بالكتابة عن خطط مدنهم ، وسجل لهم يدهم في ذلك فأشركهم في عمله ، وما يستطيع أن يقوم فرد وحده لهذا العب

(١) نقلنا هذا الاحصاء عن كتابه خطط الشام بقلمه . وقد بلغت الخطط ١٩٤٠ صفحة

(٢) هذه اللجنة كانت تسمي نفسها لجنة طبع الخطط : « بدر الداغستاني ، خليل مردم بك سامي العظم ، فخري البارودي ، فوزي الغزّي ، لطفي الحفار » ، وقد فتح باب الاشتراك منذ اول ايلول ١٩٢٥ ، وكانت المفاوضة مع السيد لطفي الحفار بدمشق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويكتب له النجاح ، لذلك رأى النقاد أنه لم يسجّل في ذيول الصفحات [١] مصادر أقواله وأحكامه ، يعيّن الكتاب والصفحة وسنة الطبع ، كما يفعل الغربيون ليومنا هذا ، وأغفل الفهارس والمصادر [٢] .

وفي صدر الكتاب ، وضع الرجل قائمة كبيرة لكتب عربيـة مخطوطة ومطبوعة ، الى قائمة كبيرة بالكتب الغربية وصحف الاستشراق ، تدل على جهد وعناية ودقة ؛ وتصور نشاط الرجل وسعيه خلال ثلاثين عاماً أنفقها من عمره لخطط بلاده .

وفي سنة ١٩٤٤ ، اختصر الرجل جزءاً من كتابه ، وجعله في عبارة موجزة ، وأسلوب حديث ، وعنون له : « دمشق مدينة السحر والشعر » ونشرته دار المعارف في مصر ، لسلسلة « اقرأ » [٣] .

٨ — الاسلام والحضارة العربية (١٩٣٤) [٤] : سافر الأستاذ الرئيس الى أكسفورد سنة ١٩٢٨ ، ليمثل المجمع العلمي بدمشق في مؤتمر المستشرقين ، وعاد منه بآراء ومقالات عن المستشرقين ونظرتهم الى الدين الاسلامي .

ثم دُعي ثانية الى مؤتمر المستشرقين بليدن (هولندا) سنة ١٩٣١ ، وفكر في موضوع يلقيه بالمؤتمر ، فكان أن اقترح أحد الأعضاء بدمشق أن يردّ على أكاذيب بعض المستشرقين ، ودسائس المغرضين ضدّ الدين الاسلامي [٥] .

(١) وعدت اللجنة بأن تشرع في طبع معجم خطط الشام ، وهو يدخل في ثلاثة او اربعة مجلدات مشفوعاً بالصورات ، ولكنه لم يظهر .

(٢) قرأنا في الكلمة التي ألقاها الأمير مصطفى الشهابي لحفل استقباله عضواً بمجمع اللغة العربية في مصر ، إشارة الى هذا الكتاب يقول فيها عن الأستاذ الرئيس : « وقد ذكر لي مرة أنه لم يبق له في الحياة إلا أمنية واحدة وهي أن يتاح له طبع هذا الكتاب طبعة ثانية منقحة » .

(٣) اقرأ ، في ١٥٢ صفحة ، نيسان ١٩٤٤ .

(٤) في جزءين ٣٦٣ + ٥٧٨ صفحة ، مصر ١٩٣٤ — ١٩٣٦ .

(٥) كان حلم للرحوم كرد علي أن تنشأ مجلة تعنى باللغة الفرنسية والانكليزية لبيان حقائق الاسلام — انظر المذكرات ٣٧٩ .

فتعهد الرجل بذلك ، وراح يهيئ دراسته ورده ، وطال الأمر ، وقعد الأستاذ عن السفر الى المؤتمر لعذر طاريء ، ولكنه ظل يكتب في الموضوع ، ويفصل الأمر فيه وليث على ذلك ثلاث سنين ، يعمل كل يوم ثماني ساعات حتى انتهى منه . فكان في المحاماة عن الاسلام والذود عن حياضه ، وأصبح معلمة طيبة في التعريف به والدعاوة له ، وبيان أغراضه وأهدافه ، وفضله على المدنية الحاضرة ، وأفضليته على غيره في نظم الحياة ، يبحث في ادارة المسلمين وحياتهم وأساليب عيشهم ، ويعتمد في ذلك على نصوص رآها ، وقراءات كانت له . واذا كان للمعري أن يتأخر وأن يصف جنته (في رسالة الغفران) ، لجعل الأستاذ الرئيس فيها ليده في هذا الميدان ، وقد غفر له ربه ، ما تقدم من ذنبه وما تأخر بفضل هذه الصفحات المشرقة ، التي تعد من أوسع المراجع في الحضارة الاسلامية لكاتب مسلم متبحر مخلص .

وقد سلخت من الكتاب عدة محاضرات نشرت في مصر بعنوان : « الادارة الاسلامية في عز العرب » ، طبعت بنفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية .

٩ — أمراء البيان (١٩٣٧) (١) : كان المؤلف يكتب في صدر شبابه بمجلة المقتبس مقالات في الأعلام عنوانها : « صدور المشارقة والمغاربة » ، ثم رأى أن يتوسع في أعلام الأدب العربي ، بعد أن وقع على كتبهم ، وطبع رسائلهم ، فأرسل دراسة واسعة عن عشرة منهم : عبد الحميد الكاتب ، عبد الله ابن المقفع ، سهل بن هرون ، عمرو بن مسعدة ، ابرهيم الصولي ، أحمد بن يوسف الكاتب ، محمد عبد الملك الزيات ، الجاحظ ، التوحيدي ، ابن العميد .

وقد جاء كتابه هذا في أسلوب مشرق وعبارة بليغة ، ومنهج واضح ، فبلغ بدراسته لهؤلاء الأدباء مكاناً رفيعاً ، جعل الكتاب محل القصد في الجامعات ، وخاصة بمصر . وما يزال الى اليوم أوسع ما كتب عن هؤلاء الأعلام باللغة العربية .

(١) نشر في ٥٧٨ صفحة ، بمصر سنة ١٩٣٧ ، ولعله فكر في جمعه قبل سنة ١٩٢٥ لجعل اسمه في خطط الشام ٤٢٤/٦ : « امراء الانشاء » .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠ – كنوز الأجداد (١٩٥٠) [1] : وهذا الكتاب في الأعلام كذلك ، ولكنه لم يقف عند المترسلين والشعراء ، وإنما تجاوزهم الى كثير ممن خدم الثقافة الاسلامية ، ففصَّل فيهم القول كما وسعه ، وتحدَّث عمن طالت عشرته لهم واغترافه من معين أسفارهم بين رجال الاسلام . فكتب في الأشعري ، والأصبهاني ، والبلويّ ، والتنوخي ، والبيروني ، والماوردي ، والجرجاني ، والغزالي ، والحريري وغيرهم ... وهم يزيدون عدداً على الخمسين ، ترجم لكل منهم في صفحات ، فجعله نواة لكتاب في تاريخ الأدب العربي ، على مفهوم بيّن غربيّ ، وفي مقياس واسع ، وقد رتبهم على الوفيات .

وقد قدَّم بين هذه التراجم ترجمةً مطوَّلة لأستاذه [2] الشيخ طاهر الجزائري ، وقد عرفه منذ صغره – كما رأينا ، وأكبره منذ نشأته ، وسار على خطاه ، وانتفع بعلمه ، فوفَّاه حقه ، وأدى نحوه دَينه ، وجعله في الأجداد الذين خدموا تراث الإسلام وكانوا في الأعلام ، لكن الزمن بعيد بينه وبينهم ، فتوَّج به صفحات الكتاب ، وافتتح التراجم به .

١١ – غوطة دمشق (١٩٤٩) [3] : أحبَّ المؤلف الغوطة حباً جماً خالط لحمه ودمه ، فقد ورث فيها قطعة من أرض « جسرين » عن أبيه – كما قلنا – سكن الى ظلالها ، وارتوى بمائها ، وعاش مع أبنائها ، واختلط برجالها ، فكأنها بلده وحكومته ومجمعه ، فيها مجلس شوراه ، وبها أسماره ونوادره ؛ ألفها حتى حسب نفسه فلاحاً من فلاَّحيها [4] ، وشاطر أهلها عواطفهم في فرح وحزن ، فقال :

---

(١) نُشر في ٤٣٦ صفحة ، بمصر سنة ١٩٥٠ .

(٢) لعل الأستاذ الرئيس جعل هذه الترجمة في جملة ما كان يعتزم نشره عن المحدثين لعصره كاليازجي ومحمد عبده وتيمور باشا ، لكن الأجل لم يفسح له في تحقيقه وهذا الكتاب سيكون عنوانه : « مكتشفات الأحفاد » – انظر خطط الشام ٦/٤٢٤ وتراجم المعاصرين في مجلة المجمع العلمي ظل ينشر منها حتى قبيل وفاته .

(٣) طبع الكتاب اول مرة سنة ١٩٤٩ ، ثم أعيد سنة ١٩٥٢ بدمشق على تنقيح وزيادة .

(٤) المذكرات ٧٤٩ .

« حزنت على الغوطي عبداً ، وفرحت له حراً ، آلمني عبوسه وتشاؤمه ، ومر ّني ضحكه واستبشاره »[1] .

عاش في الغوطة قرابة ستين سنة حتى أصبحت « أحب بقعة الى قلبه في الأرض »[2] ، فدرس أخلاقها ، وعاداتها ، ومدنيتها ، وخبر كلامها ، ووقف على الفصيح والدخيل ، والحديث والقديم من تاريخها ، فسجّل ما سكت التاريخ عنه ، وأرّخ للغوطة على منهاج لطيف ، سيكون في تواريخ القرى الحافلة ، يبذّ تاريخ داريا والمزة وغيرهما . وقد كتبه في عاطفة المحب ، وشوق الودود ، وإخلاص الشاعر الوفيّ ، والأديب البليغ ؛ فكسا الغوطة ثوباً من حياة ، وردّ اليها الجميل ، لما قدّمت من خير الى دمشق ، فقد أحالتها من صحراء قاحلة الى واحة ساحرة .

د ـ تحقيق الكتب :

فتحت مجلة المقتبس صدرها منذ السنة الأولى لتحقيق الكتب القديمة عن مخطوطاتنا المخبوءة ، بعنوان « صحف منسية » فنشرت كتاب الأشربة لابن قتيبة ، والمقامات اللزومية ، وتذكرة ابن العديم ، ورسائل كثير من البلغاء .

وعُنيت كذلك بوصف الخزائن الخطية في الأستانة والمدينة والقاهرة ، ولا شك في أن صحبة الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري[3] دفعت الأستاذ الرئيس الى محبة المخطوطات والعناية بها ، فعمل على تحقيقها وهو في الثلاثين من عمره ، وظلّ على ذلك حتى أسلم أنفاسه .

وقد أخرج عدداً من النفائس ، وشجع الشباب والأقران على إخراج مثلها ، واقتنى للمجمع العلمي من صورها ما يشهد له أبد الدهر ببعد النظر ، وعمق الفهم ، وسعة المعرفة .

---

(١) الغوطة ٢٥١ ، إقرأ ١٥١ .
(٢) مجلة المقتبس ٤/٤٦٥ .
(٣) نقل في مقدمة « حكماء الاسلام للبيهقي » ص ٩ : « وقال أستاذي السيد محمد المبارك : تصحيح الكتب القديمة أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة » .

١٢ – رسائل البلغاء (١٩٠٨)[١] : نشرتْ المقتبس – كما قلنا – أكثر هذه الرسائل بعناية المستشرقين والشرقيين ، ثم جمعها الرجل ونشرها في مصر ، فكانت المصدر الفذ لهؤلاء البلغاء ، وما تزال . واليها يرجع الباحثون لدراسة رسائل عبد الحميد الكاتب ، وابن القارح ، والمعرّي ، وابن شرف القيرواني وابن قتيبة ، والوطواط ، وابن طاهر البغدادي ، وابن المدبر ... وغيرهم وقد هذّبت الطبعة ونقحت عدة مرات حتى قاربت الكمال .

١٣ – سيرة أحمد بن طولون (١٩٣٩) [٢] : كتب هذه السيرة أبو محمد عبد الله البلوي ، وفصّل الأمر في حياة آل طولون ، وزاد على ما في التواريخ المتداولة ، فهو أوسعها وأهمها في هذا الباب . وكانت مخطوطة السيرة من أوراق الدشت بالظاهرية ، وهي في خطّ قديم ، صعب القراءة ، لكن جهد الأستاذ الرئيس ذلّل العسير ويسّر النص ، فوضع أيدينا على صلات الشام ومصر للقرن الرابع الهجري كما صوّرها المؤلف . وفي صدر هذه السيرة مقدّمة علمية لمحتها الطابع النقدي ، كما عرف به الأستاذ الراحل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٤ – المستجاد من فعلات الأجواد (١٩٤٦) [٣] : وهذا مصدر ثمين ألفه المحسّن التنوخي ، في القرن الرابع ، وضمنه أخبار الكرماء في الجاهلية والإسلام ، على أدب جمّ ، ونكت مستفيضة ، تقف لأخبار الجاحظ في البخلاء ، وتصوّر الحياة الاجتماعية في العصور الاسلامية الأولى ، تصويراً لا يخلو من مغالاة واسراف . والنسخة التي اعتمد عليها علامتنا في طبع الكتاب أخذها من الظاهرية .

١٥ – تاريخ حكماء الاسلام (١٩٤٦) [٤] : لظهير الدين البيهقي ، وهو من أعلام القرن السادس ، جمع فيه أخبار العلماء والحكماء والأطباء ، وصوّر

(١) طبع أول مرة سنة ١٩٠٨ ، وثانية سنة ١٩١٣ ، وثالثة سنة ١٩٤٦ بمصر .
(٢) طبع في دمشق ١٩٣٩ ، وهو في ٤٠٠ صفحة .
(٣) طبع في منشورات المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٦ .
(٤) طبعه المجمع العلمي في منشوراته بدمشق سنة ١٩٤٦ .

لنا عيشهم ودراساتهم ، وما أثر لهم من حكم ، وما وصل عنهم من تفكير . وهو مصدر هام في الفكر الاسلامي ، يترجم للرجال في إيجاز لا تجد بعضه في المطولات . ونسخة الأصل جاءت من مخطوطات برلين .

١٦ — كتاب الأشربة (١٩٤٧) [١] : لابن قتيبة ، يجمع الأدب والفقه في لغة مشرقة ، وأخبار لطيفة ، وقد طبع الكتاب من قبلُ المستشرق أرتوركي ونشره سنة ١٩٠٧ ، وأعاد علامتنا طبعه على ثلاث نسخ مخطوطة ، جاء وافياً بالتدقيق والتحقيق .

١٧ — البيزرة (١٩٥٣) [٢] : وهذا الكتاب في الصيد وآلاته ، والحيوانات وأضرابها ، وما قيل فيها من أدب طريف وشعر لطيف ، وقد نسب الى كشاجم حيناً والى بازيار العزيز بالله الفاطمي حيناً آخر ، صححه علامتنا الفقيد وكتب مقدمته ، وكان آخر كتبه ، انتهى بعد موته ، فقد كان يراجع فيه خلال مرضه الأخير ، ولعله قضى وهو يصحح كلماته ، ويشرح وهو يفكر في ألفاظه ، فأسلم الروح وبين يديه كتاب جديد ينفع به العربية ، وعمره قد أربى على السابعة والسبعين أنفقها في السعي والجد من غير أن تعرف حياته معنى للراحة أو مغزى للاستقرار .

فكان إماماً في الصحافة ، وحجة في التحقيق ، وعلماً في الكتابة والتأليف ، ورئيساً جليلاً ، وزعيماً من زعماء الفكر في القرن العشرين .

رحمه الله رحمةً واسعة ، وألهم الشباب ان يقتدوا بجدّه وسعيه .

* * *

(١) من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٧ .

(٢) طبع في المجمع العلمي بدمشق ١٩٥٣ .

مؤلفات الأستاذ الرئيس

			الصفحات	السنة
١ — نبعة اليهودي ليفان (بتيمة الزمان)			مصر	١٨٩٤
٢ — الفضيلة والرذيلة		٢٦٧	مصر	١٩٠٧
٣ — المجرم البريء	(أربعة أجزاء)	٨٠٠	مصر	١٩٠٧
٤ — تاريخ الحضارة (شارل سنيوبوس)	(جزء)	٢٢٠	مصر	١٩٠٨
٥ — رسائل البلغاء		٥٢٢	مصر	١٩٠٨
٦ — غرائب الغرب	(جزءان)	٦٤٠	مصر	١٩١٠
٧ — البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية		٢٩٦	بيروت	١٩١٦
٨ — الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية		٣٠٠	بيروت	١٩١٦
٩ — خطط الشام	(ستة أجزاء)	١٩٤٠	دمشق	١٩٢٥—١٩٢٨
١٠ — القديم والحديث		٣٤٦	مصر	١٩٢٥
١١ — الاسلام والحضارة العربية		٩٤١	مصر	١٩٣٤
١٢ — أمراء البيان	(جزءان)	٥٧٨	مصر	١٩٣٧
١٣ — سيرة أحمد بن طولون		٤٠٠	دمشق	١٩٣٩
١٤ — دمشق مدينة السحر والشعر		١٥٢	مصر	١٩٤٤
١٥ — المستجاد من فعلات الأجواد		٢٨٤	دمشق	١٩٤٦
١٦ — تاريخ حكماء الإسلام		٢٠٤	دمشق	١٩٤٦
١٧ — أقوالنا وأفعالنا		٤٢٧	مصر	١٩٤٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

		الصفحات	السنة
١٨ – الأشربة		١٢٧	دمشق ١٩٤٧
١٩ – المذكرات	(أربعة أجزاء)	١٣٢٠	دمشق ١٩٤٨–١٩٥١
٢٠ – غوطة دمشق		٣٥٨	دمشق ١٩٤٩
٢١ – كنوز الأجداد		٤٣٦	دمشق ١٩٥٠
٢٢ – البيزرة		٣١٢	دمشق ١٩٥٣

(بلغ مجموع هذه الصفحات ١٠٢٥٤ تقريباً ، عدا مجلة
المقتبس وقد صدرت في تسعة أجزاء وتبلغ ٦٤٧٦ صفحة)
(وجريدة المقتبس أصدرها مع أخيه خلال سنين عدة)

الدكتور سامي الدهان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في اللغة أبناء عَلاّت

كما في البشر

كما يكون في العائلات البشرية بنو عَلاّت أي أولاد لأبٍ واحد ولدوا من أمهات شتى كذلك في اللغة العربية « أبناء عَلاّت » أو تقول « مشتقات عَلاّت » .

نرى طائفة من الكلمات ذات وحدة في مادتها وحروفها فإذا نقَّبت عن أصل المادة التي اشتقت منها أو تولّدت منها مجموعة تلك الكلمات رأيتَ أن ذلك الأصل تارةً يكون عربياً من وضع العرب الأقحاح فولد ألفاظاً عربية قحة وتارةً تجده من لغة الفرس مثلاً وقد ولد ألفاظاً فارسية استعربت بلسان العرب وأصبحت مع الألفاظ العربية المشاركة لها في المادة إخوة مندمجة في أسرة لغوية واحدة : متحدة الأب مختلفة الأم .

ولا يتضح هذا في النفس ما لم نُلِمّ ببعض الشواهد عليه :

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.org

— ١ —

« مَرْج »

مادة مَرْج : قد تكون أمّاً عربية لعدة كلمات اشتقت منها أو تولدت منها ، نرى في كتب اللغة أن تلك المادة أي مادة « مرج » تدل في أصل معناها على القلق والاضطراب كما في اللسان ويلزم من اضطرابِ الشيء وقلقِهِ فسادُهُ وعدم صلاحيته للانتفاع به . فكان الفساد من معاني المَرْج . ولا شيء من أقوال اللغويين يدل على أن « المرج » بهذا المعنى فارسيّ الأصل فهو إذن عربيٌّ محض ، وقد اشتق منه مشتقات عربية كثيرة :

١ — مَرِج الخاتم في إصبعي مَرَجاً قلق . وكذلك السهمُ يُقلقه الدم اللاصق به فيختلُّ حركته ويطيش ويسقط يقال سهمٌ مريج . واذا كان السهم أعوجَ ملتوياً قيل فيه أيضاً سهمٌ مريج . ولا غرو فإن « المرج » يكون بمعنى الفساد كما مرَّ واعوجاج السهم والتواؤه فساد فيه . ومما يدل على أن معنى الفساد في كلمة المرَج مأخوذ من معنى القلَق في الخاتم قولُ صاحب النهاية « مَرِجَ الدينُ فسد وقلقت أسبابه » . وكذا الأمر والعهد والأمانة يقال فيها مرِجت اذا فسدت .

٢ — ومن مشتقات « المرْج » العربي قولهم « مَرَج فلانٌ أمرَه يمرُجه » إذا ضيعه : فهو منه في قلقٍ واضطراب . ورجل مِمراج يمرُج أمورَه ولا يُحكمها فهي قلقة مضطربة .

٣ — ومن سلالة « مَرَج » العربية أمرجتْ الناقة فهي مُمرِجة إذا ألقت ولدها قبل تكوّنه جنيناً . فهذا من « المرج » العربي الذي معناه الفساد .

مادة مَرْج الفارسية : هي أمٌّ أعجمية لطائفة من الكلمات العربية اشتُقت منها أو تولدت منها : جاء في المخصص لابن سيده (جزء ١٠ ص ١٢٧) مانصه : « والمَرْج الأرضُ المغيضةُ الواسعةُ التربة المِعشاب . وأصله فارسي . وقد جرى في كلام العرب وصُرِّف . قال العجاج ـ ووصف عَيْراً وأتُناً ـ « وقد رعَى مَرْجَ ربيعٍ مُمرَجاً » . « والمورَج المرْعيُّ » انتهى قول ابن سيده .

والأصل الفارسي الذي عرَّب العرب منه كلمة « مَرْج » هو « مَرْغ » بفتح الميم وسكون الراء والغين المعجمة . وقد فسر شمس الدين سامي في قاموسه التركي كلمة « المرغ » بكلمة « چاير » التركية . وتفسر المعاجم التركية كلمة « چاير » بالمرْج وبالمرْعى . فلم يبق شك في أن « مَرْج » العربية التي معناها مَرعى الدواب معرَّبة من « مَرْغ » الفارسية . عُرِّبت في زمن الجاهلية . واستُعملت في كلامهم كسائر ألفاظهم القحة العربيةِ الأصل . ثم إن « مَرْج »

الفارسية هذه ولدت أولاداً ومشتقات عدة : قال صاحب الصحاح في تفسير معنى « المَرْج » الفارسية ما نصه « المرج الموضع الذي تُرعى فيه الدواب » وزاد عليه صاحب اللسان قوله « مَرَجَ الدابةَ يمرُجُها اذا أرسلها ترعى في المَرْج » . فدلَّ بقوله « ترعى في المرج » على أن فعل مَرَجَ الذي هو بمعنى أرسل إنما اشتُق من كلمة « المرْج » الفارسية . وزاد هـذا القول تثبيتاً الشيخ الفيومي المصري [1] في مصباحه : ونصه « المرْج أرضٌ ذات نباتٍ ومرعى . ومَرَجَتْ الدابةُ رعت في المرج ومَرَجتُها أنا أرسلتُها ترعى في المرج » فانظر كيف أن كلمة « المرج » الفارسية دخلت في تفسير معنى فعل « مَرَجَ » الدابة المعرَّب الذي كادوا يجمعون على أن معناه إرسالُها في المرعى .

وليس هذا فقط بل إن « مَرَجَ » بمعنى أرسل الدابة استعمله العربُ في معنى مجازي وقد جاء بهذا المجاز الوحي الإلهي : ففي التنزيل في سورة الرحمن : « مَرَجَ البحرين يلتقيان » قال الإمام الطبري شيخ المفسرين : « يقول تعالى ذكره : مَرَجَ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين البحرين يلتقيان : يعني بقوله مَرَجَ أرسلَ وخلَّى من قولهم مَرَجَ فلان دابته إذا خلاَّها وتركها » وذكر سند هذا التفسير فأوصله الى ابن عباس . ثم انتقل الطبري الى تفسير المراد من إرسال البحرين . فقال إن معنى إرسالِها إطلاقُهما يجريان حتى إذا التقيا وقفَ كل واحد منهما عند حدود برزخه فلا يبغي أو يطغَى على الآخر » . فمَرَجَ

---

(١) قال بعض الاخوان ان الفيومي صاحب المصباح ليس مصرياً وانما هو عراقي . والفيوم التي نسب اليها هي مدينة في العراق مسماة باسم الفيوم المصرية : جاء في معجم البلدان عند ذكر فيوم العراق ما حاصله: طاح أعرابي « أي ضل في البلاد » فمرض فقصد الفيوم للاستشفاء فوصفوا له دهن البنفسج فقال :

« عجبت لعطارٍ أتانا يسومنا ... بدسكرة الفيّوم دهن البنفسج »
« فويحك يا عطار هلا أتيتنا ... بضغث خزامى أو بخوصة عرفج »

يريد انه إنما يشفيه عقاقير بلده لا دهن البنفسج « البنفشه » الفارسي .

البحرين في الآية بمعنى أرسل . وهذا إرسال مجازي . أما الإرسال الحقيقي ففي إرسال الدابة طليقةً في المرعى كما لا يخفى .

فقد تحصل معنا أن كلمة « مَرْج » التي معناها المرعى فارسية الأصل وأن من أولادها اللواتي اشتُقت منها مَرَجَ الدابة إذا أرسلها في المرج لترعى ومَرَجَ البحرين أرسلها تعالى فيلتقيان ولا يبغيان . على ان اللسان يقول أيضاً : « والمرجُ الخلطُ ومَرَجَ الله البحرين خلطهما حتى التقيا » فيكون للمرج في الآية معنى غير الإرسال . لكنه مأخوذ أيضاً من الأصل الفارسي أعني اختلاط الدواب في المرعى .

٢ — ومن مشتقات « مَرْج » الفارسية قولُ العرب « مَرِجَ الناسُ » اذا اختلطوا اختلاطَ الدواب التي تُخلّى في المرعى فتسرح حيث شاءت .

٣ — ومنها « رجل مَرّاج » قال صاحب اللسان : معناه أنه يزيد في الحديث . وهذه الزيادة خلط بين شيئين : فلا جرم أن يكون « مرّاج » هذا من « مَرْج » الفارسية التي تختلط فيها دواب الرُعاة في المرعى . ويقولون أيضاً فلان سرّاج مرّاج أي كذاب (١) .

مشتقات أخرى

يحتمل أن تكون من نتاج « مرج » العربية

أو « مرج » الفارسية

١ — مَرِجَ الأمرُ مَرَجاً اختلط والتبس على الناس فلم يعودوا يعرفون وجه الصواب فيه « فهم في أمرٍ مريج » كما في التنزيل . ويقال « غصنٌ مريج » ملتوٍ مشتبك قد التبست شناغيبه . ويلزم من التباسه على هذا الشكل فسادُه وعدم الانتفاع به . فالمرج بهذا المعنى مأخوذ من الأصل العربي الذي هو بمعنى

(١) وهنا يصح السؤال عما اذا كانت كلمة « سرّاج » تصلح ان تقوم مقام كلمة شارلاتان « charlatan » الفرنسية أولاً ؟

«القلق والاضطراب» . أو يقال هو من الأصل الفارسي الذي معناه «تخلية الدواب في المرج مختلطةً تسرح كيفما شاءت» إذ أن التباس الأمر واختلاط وجهات النظر فيه يشبه اختلاط الدواب في المرعى وتسرّبها أنى شاءت: فلا يعود النظر يقدر على تعيين وجهةِ كلٍ منها، أو أن الرعاة لا يكادون يميزون بين دوابهم بعضها من بعض: ففعل «مَرِجَ الأمر» بمعنى التبس واشتبه يحتمل أن يكون متولداً من الأصل العربي بمعنى الفساد والقلق، أو من الأصل الفارسي وهو اختلاط الدواب في المرعى .

٢ — «المرْج» بمعنى الفتنة يحتمل أن تكون من مَرَجَ الدوابَّ في المرعى مختلطةً تفعل ما تشاء ويذهب كلٌّ منها أنى شاء لا راعي لها ينظّم حركاتها كما يحتمل أن تكون من قلَق الخاتم في الإصبع واضطرابه . وكذلك الناس في الفتنة مضطربون في أعمالهم قلقون في معايشهم ومشاغل حياتهم .

٣ — «مارج من نار» يحتمل أن يكون من «مَرِج» العربية بمعنى القلق والاضطراب: فقد فسروا المارج بالشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد «فهي دائماً في قلق وارتعاش بالطبع» — ويحتمل أن تكون من «مَرْج» الفارسية بمعنى المرعى الذي تختلط فيه الدواب . وكذلك المارج الذي قيل في تفسيره أيضاً «مارج النار لهبها المختلط بسوادها» كما في اللسان، فالمارج يختلط فيه النور بالدُّخان كما تختلط الدواب في المرعى .

***

وكأني بقائلٍ يقول: إذا صحّ ما نُقل عن ابن سيده من أن كلمة «مرج» فارسية الأصل وقد عربها العرب وصحّ من جهةٍ أخرى أن هناك كلمات من مادتها لم تُجعل مشتقة من هذه الأم الفارسية بل من أمٍ عربية — فلماذا هذا الجعل والتفريق ما دمنا نرى في هذه الكلمات المنسوبة الى الأم العربية معنى

الاختلاط والفساد الموجود في الأم الفارسية نفسها أعني كلمة «المرج» : فمعاني الكلمات التي ظُنَّ أنها عربية ترجعها كلها الى معنى القلق والاضطراب والفساد . وما الفرق بين هذه المعاني وبين معنى اختلاط الدواب في المرعى . فالمعقول «ما دام لا يوجد لعلماء اللغة رأيٌ صريح في المسألة» أن تكون مادة «م ر ج» فارسية محضة ويرجع معناها الفارسي الى المرعى واختلاط الدواب فيه . ثم تفرّعت من تلك المادة الأعجمية الواحدة مشتقات : عربية الأب فارسية الأم وقد حملت معاني منها الحقيقي ومنها المجازي وترجع كلها الى المعنى المستفاد من الأصل الفارسي .

ونحن لا نوافق القائل على قوله هذا من إرجاع معاني «المرج» كلها الى الأصل الفارسي وحده : لأن علماء اللغة الذين صرحوا بأن «المرج» بمعنى المرعى فارسي هو ومشتقاته لم يصرحوا كذلك في «المرج» ذي المعاني الأخرى : فهذا صاحب اللسان يقول «وأصل المَرج القلق» فكيف نقول بعد هذا النص وبعد تصريحه بكلمة «أصل» أن معنى القلق يرجع الى معنى «المَرْج» الفارسي وهو المرعى ? إذن تبقى على رأينا من أن ألفاظ هذه الأسرة اللغوية بعضها يرجع الى أمٍّ عربية ، وبعضها يرجع الى أَمَةٍ فارسية ، وبعضها اشتبهت نسبته والتبست طينته فبقي مجهول النسب .

— ٢ —

« البزر »

مادة «بزر» عربية . ولها مشتقات ذات معانٍ مختلفة مسرودة في معاجم اللغة تؤلف أسرة واحدة ، وقد تخلَّل مشتقات هذه الأسرة لفظ غريب عن الأسرة لا شبهة في عجمته أو فارسيته ، وقد اشتُق من هذا اللفظ الفارسي مشتقات . وبذلك أصبحت مجموعة مشتقات مادة «ب ز ر» أبناء عَلّات : منها ما يرجع الى أمٍّ عربية ، ومنها ما يرجع الى «أُم وَلَد» فارسية .

« الأصل العربي أو الأم العربية » : قال ابن سيده « البَزْر » بفتح الباء وكسرها كلّ حبّ يُبزَر للنبات • واستُعمل مجازاً في الأولاد • يقال ما أكثر بَزْر فلان • والمبزور هو الرجل الكثير الولد • والبزراء المرأة الكثيرة الولد » اهـ وفي الحجاز اليوم يسمون الأولاد « بزورة » •

٢ — ومن أولاد الأم العربية كلمة البَزْر بمعنى المخاط • وبَزَّر فلان ببزر اذا امتخط •

٣ — ومنها « البِزْر » بكسر الباء وفتحها والكسر أشهر - التابل وهو « ما يؤكل مع الطعام لهيج شهوته » وجمعه أبزار وأبازير • والى هذا البزر يُنسب « سوق البزورية » وهو أشهر أسواق دمشق في بيع الأبازير كالحمزاوي في القاهرة •

٤ — ومن مواليد مادة « بزر » العربية بَزَرَه بالعصا إذا ضربه بها • والعصا نفسها تُسمى البَيْزارة والبَيْزَر والمِيْزَر • هذا اسم العصا بشرط أن تكون عظيمة ضخمة • ومنه قول القائل (ض) في وصف وقعة الجمل : « ما شبّهتُ وقع السيوف على الهام إلا بوقع البَيَازِر على المواجن » : فالبيازر العِصيّ الضخام • أما « المواجن » فجمع مِيجَنة وهي عصا القصّار أو مِدُقّته أعني خشبته التي يدقّ بها أو نقول يَبزُرُ بها الثوب في الماء لينظف • وتسمى الميقعة أيضاً • كما ان الميقعة والمِطْل تستعملان في مطرقة الحداد •

ولي هنا إشكال لم أهتد الى حلّه إلا بصعوبة ذلك انهم قالوا : البيازر هي العصيّ الضخام التي تُتخذ مداقّ للقصارين ومثلها المواجن : فكيف يُنظف الثوب بدقّه بين عَصَوَين ؟ فلم يبق إلا أن يقال ان البيازر يُدقّ بها الثوب المبلول الذي يكون مُلقى على عصا أخرى وتكون العصا الأخرى عريضة صلبة وهي الميجنة : فالميجنة تارةً يُخبط بها وتارة يخبط عليها • أما البَيْزارة فهي التي يخبط بها لا عليها •

٥ – قالوا ومن مشتقات « بزر » العربية ماجاء في حديث أبي هريرة : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً ينتعلون الشعر وهم البازِر » والبازر بتقديم الزاي على الراء ناحية في بلاد فارس : فقوله في الحديث وهم البازِر يعني أهل البازر قيل هم الأكراد اهـ . لكن التحقيق أن البازر بتقديم الزاي على الراء تحريف . وأن صوابه « البارِز » بتقديم الراء على الزاي ، وهذه الزاي تُقلب أحياناً سيناً فتصبح « پَارْس » وپارس اسم بلاد فارس . وبالسين ينطقها أهل تلك البلاد بلغتهم اليوم كما لا يخفى كما ينطقها الفرنسيون پرس بلغتهم ، وقال لي صديق إيراني فاضل وهو محمد محيط الطباطبائي ان في هذه الناحية « التي سماها الحديث (بارِز) وهي بقرب كرمان » بلداً ما زال يسمى باريز الى أيامنا هذه .

« الأَصل الفارسي » أو الأُم الفارسية التي استولدها العرب أولاداً اندمجوا في أسرة « بزر » العربية – كلمة « البَيْزَرَة » وهي مهنة تربية جوارح الطير كالباز والشاهين والصقر . ويكون صاحبها عادة في خدمة الملوك والأُمراء ويسمى « البازيار » و « البازدار » . وكلتا الأَداتين : « يار » و « دار » فارسية تفيد معنى صاحب الشيء الملازم له والقيّم عليه والمولع به ، ومن هنا جاءت « يار » بمعنى العشق : فشهريار صاحب البلاد وهو الملك . وبختيار صاحب البخت وهو المحظوظ السعيد في حاله وماله . وسنجقدار صاحب السنجق وبيرقدار صاحب البيرق وهو الراية . وهكذا يقال في معنى « بازدار » و « بازيار » صاحب الباز وحامله في الصيد والمتولي أمره . وقد اشتقوا من الأُولى مصدراً فقالوا « البزدرة » وهي مهنته . وكذلك اشتقوا من البازيار « البزيرة » بتقديم الزاي ، لكن العرب لم يُبقوا على المصدر الأَخير أعني « البزيرة » بل تصرفوا فيه بعد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريبه [1] ، فقدموا الياء على الزاي وقالوا « البيزرة » كأنه مصدر « البايزار » ولم نسمعهم يقولون « البايزار » بتقديم الياء وانما يقولون « البازيار » لفظاً فارسياً مركباً من « الباز » و « يار » كما مر . و « يار » كما قلنا فارسية ألبتة ، أما « الباز » اسماً للطائر فظاهر أقوال علماء اللغة العربية أنه عربي كالبازي بالياء في آخره . ولم أرَ من صرح بعجمة الباز، اللهم إلا شمس الدين سامي في « قاموسه » فقد قال أن الباز فارسي . والعرب وإن قالوا أن « الباز » عربي فانهم بعد تركيبه مع « يار » في « البازيار » يقولون عنها - أي عن البازيار - أنها أعجمية . هذا الشيخ الأزهري أقدم اللغويين يقول في كتابه « تهذيب اللغة » كما نقله عنه صاحب التاج « والبَيْزار الذي يحمل الباز ويقال فيه البازيار كلاهما دخيل اه » فهذا صريح بأن « البَيْزار » الذي هو مقلوب « البازيار » ويدلان على صاحب الباز - يعتبرهما علماء العربية من معرَّبات اللغة ومن الدخيل فيها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فتحصل معنا أن في مادة « بزر » أصلين أو أُمَّين إحداهما عربية بمعنى الضرب ومنه اشتُق فعل « بَزَرَ » أي ضَرَبَ ، وكلمة « البَيْزارة » أي العصا التي تخبط بها الثياب لتنظيفها . والأم الأُخرى كلمة « بازيار » الفارسية بمعنى صاحب الباز . وقد استولدها العرب ولداً وهو « بَيْزار » بمعنى مربي الباز . وجعلوا من

(١) ولعل السر في ذلك ان صيغة « الفيعلة » في كلام العرب مصدراً هو الشايع المستعمل أما « الفعيلة » فلم يسمع أو هو قليل جداً . ويشبه هذا ما قاله « ابن فارس » في كتابه المسمى « كتاب النيروز » فانه سئل عن كلمة « النيروز » هل هي عربية وما وزنها ، فكتب كتابه هذا وضمنه الألفاظ التي جاءت على وزن « نيروز » كبيروت وبيقور الخ ، وقال في المقدمة ما نصه : « ولتعلم ان هذا الاسم - اي نيروز - معرب ومعناه اليوم الجديد وهو قولهم نوروز. إلا ان النيروز اشبه بأبنية العرب لأنه على مثال فَيْعول الخ » ويقول هنا اي في « بَيْزرة » التي قدمت فيها الياء ان صيغتها وبناءها اشبه بأبنية العرب من بَزْيَرة لأنه على مثال فَيْعلة كفيلجة وكيلجة وحيعلة الخ الخ .

البَيْزار مصدراً وهو البيزرة ، ومنها « كتاب البيزرة » ، بَيدَ أن الأصل العربي أمٌّ وَلود نثور لها الكثير من الأولاد . أما الأصل الفارسي فأمٌّ مِقلاتٌ نزور . لم تلد إلا النزر القليل .

— ٣ —

« عسكر »

هذا اللفظ أو هذه المادة « ع س ك ر » عَرَفَها العرب في أصل لغتهم . واستعملوها في معاني خاصة . ثم عادوا فعرفوها من طريق اللغة الفارسية عندما سمعوا الفرس يقولون « لشكر » أي الجيش المحارب فاقتبسوا لشكر منهم وعربوها .

« عسكر العربية ومشتقاتها » قال صاحب اللسان : العسكرة الشدة والجدب . ثم استشهد على كونها بمعنى الشدة بقول طَرَفة بن العبد « ظلَّ في عسكرةٍ من حبِّها » أي ظلَّ ذلك المحب في شدة من حب محبوبته . وقال آخر :

« عساكر تغشى النفسَ حتى كأنني أخو سَكرةٍ دارت بهامته الخمرُ »

واذا قالوا عساكر الهمّ أرادوا ما رَكِب بعضه بعضاً وتتابع من الهمّ . ومن معاني العسكر العربية قولهم عَسْكَرُ الليل يعنون ظُلمته . ولا يخفى ما بين الشدّة والظلمة من التشابه والتناسب . فكلتاهما من معاني العسكرة العربية التي لا نزاع في عُروبتها بين علماء اللغة .

« عسكر الفارسية ومشتقاتها » قال في اللسان عطفاً على العسكرة العربية التي فسرها بالشدة ما نصه « والعسكرُ الجمعُ فارسي » ويعني بالجمع الجماعةَ من الناس . ولما كان الجيشُ المحارب جمعاً سموه عسكراً . لكن « عسكر » هذه المعرَّبة لم تبق على ما كان يلفظها الفرس بلغتهم . فان العسكر بلغتهم « لشكر » باللام فعرَّبها العرب الى « عسكر » بقلب لامها عيناً وأدمجوها في لغتهم العربية واشتقوا منها مشتقات أكثر مما اشتقوا من ضَرَّتها « عسكر » العربية بل قد توسعوا

في عسكر الفارسية الى أبعد حد : فسموا الجمع من الرجال عسكراً وكذا الجمع من الخيل والكلاب . واذا كان للرجل مال ونَعَم سموا جمعَ ماله ونَعَمه عسكراً ، حتى قال شاعرهم :

« هل لكَ في أجرٍ عظيمٍ تُؤجَره   تُعِين مسكيناً قليلاً عسكره »

أي إنه لا يملك مالاً ولا أنعاماً ولا ماشية : فهو قليل العسكر ، كل ذلك من حسن تصرُّفهم في تلك اللفظة الفارسية التي تبنوها ، وانتفعوا بما استولدوه من بزورها ، وكما اشتقوا من « أندازه » الفارسية بمعنى المقياس فعل « هَندَس يهندس هندسةً » اشتقوا من عسكر الفارسية فعل عسكروا [1] بالمكان اذا تجمعوا فيه . فهم معسكرون . والموضع ينزل فيه العسكر يسمى معسكَراً بفتح الكاف .

وهنا ينبري لنا القائل الذي سبق أن اعترض على رأينا في مادة « مرج » والتفرقة بين عربيتها وفارسيتها فيقول : لا يوجد « عسكر » في أصل اللغة العربية وانما هي ـ أي عسكر ـ كلمة فارسية فقط ، وقد عرَّبها العرب فاستعملوها في معناها الفارسي وهو الجمع والجماعة والجيش . ثم تصرفوا فيها وتجوَّزوا ما شاءوا وشاء استبدادهم : فاستعملوها بمعنى الشدة وجعلوا للشدائد والهموم والظلمات عساكر وجيوشاً تتلاحق على التجوُّز . فليست هذه المعاني أي الشدائد والهموم والظلمات ـ لكلمة « عسكر » العربية التي زعمتموها ولا وجود لها وإنما هي من المعاني المجازية لعسكر الفارسية : فالعسكر كالمرج كلتاهما فارسيتان عرَّبها العرب واستعملوهما في معانٍ حقيقية ومعانٍ مجازية .

---

(١) ولعل في هذا المعنى جاء قول الشاعر :

« كأنَّ خُزامى بالعقو بين عسكرَتْ   بها الريح وانهلتْ عليها ذِهابها »

« تضمنها بردا مُليكة إذ غدتْ   وقُرِّبَ للبين المشتّ ركابها »

أقول: ان البيتين في كتاب « النبات » للدينوري وهما أيضاً في معجم البلدان ٦٩٩/٣ فمعنى « عسكرت » فيهما ان الريح أقامت وتتابعت وكثر هبوبها على تلك الخزامى فكان ذلك أطيب لها، وأعود بالنماء عليها. « وذهابها » جمع ذهبة أي أمطارها الغزيرة.

هذا ما يقوله القائل وهو اجتهاد في اللغة لا نُقرّه عليه ، وإنما الصواب الذي يميل اليه القلب ، هو الوقوف عند حدود ما قال علماء اللغة الثقات من أن « المرج » بمعنى المرعى فارسيّ معرّب وما سواه أطلقوا فيه القول فيكون عربياً ، وكذلك العسكر بمعنى الجند والجماعة من الناس فارسي معرب . وما سواه من المعاني التي ذكروها للعسكر العربي فهي معان عربية .

وما ذكرناه من المواد « مرج ، بزر ، عسكر » إنما هو مثال لما سميناه « أبناء العَلاّت في اللغة » والاّ ففي موادّ كلمات اللغة أشباه ونظائر لما ذكرنا تكاد لا تعدّ ولا تحصى . والفطن لا يعدم الانتباه الى أمثالها : ككلمة « سُكَّر » فهي معربة من « شَكَر » الفارسية التي لها أبناء ومشتقات . وهناك « سَكَر » العربية وأصل معناها في اللغة « السدّ » ولها أبناء ومشتقات أيضاً .

فالفريقان من مشتقات « سُكَّر » الفارسية و « سَكَر » العربية يؤلفان أسرةً أو عائلةً لغوية واحدة كلاًّتها أبناء علاّت وهكذا وهكذا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

***

« استدراك »

على كلمة « المرج » أعربية هي أم أعجمية ؟

قال بعض الفضلاء وقد ارتاب في عجمة المرج : « نحن نظل على عجمتها الى أن تظهر حجة جديدة على عروبتها . وليس النقل عن « ابن سيده » بالذي يجيز لنا أن ننزل عما ورثناه وألفناه » .

وقال آخر : « إن ابن سيده أندلسي ولا اتصال بين الأندلس وشعبها وبين فارس وشعبها حتى يتقارضا الألفاظ » .

وقال ثالث : « ليس النزاع في كون المرج معربة أو لا وإنما النزاع في

أن يكون تعريبها عن اللغة الفارسية ومن المستبعد أن يُقبل قول (ابن سيده) في فارسيتها ».

أقول: إن بحثي السابق لم يكن في إثبات كون المرج من أصل فارسي أو أصل عربي، ولا في مناقشة اللغويين في الألفاظ المعربة، وإنما هو كما يعرف من عنوانه حول أبناء العلات في الأسر اللغوية كما في البشر. وجاءت كلمة المرج مثالاً في ذلك. وعزوتُ عجمتها الى الجزء والصفحة من مخصص ابن سيده. ولعمري إنه لم يسؤني التشكيك في عجمتها بل ربما كنت أتمنى أن تقوم الأدلة على عربيتها وعروبة جميع معربات اللغة. ولكن لابن سيده ومخصصه في نفسي منزلة أعتقد معها أن مثل هذا الرجل الثقة الثَّبْت لا يجرؤ على دعوى فارسية المرج.. ومثله لا يفتات على اللغة، وهو عُذَيْقها المُرَجَّب. وجُذَيْلها المُحَكَّك.

لذلك كله أقف مع المعترضين موقف المخالف لهم. المستضعف لأدلتهم. ولما أردت أن أناقشهم في دعواهم كان أول ما امتدت يدي اليه كتاب «المعرَّب» للجواليقي فإذا هو يقول في صفحة (٣١٠) طبع دار الكتب المصرية المحققة بقلم الأستاذ أحمد محمد شاكر ما نصه: «والمرج فارسيّ معرَّب قال الليث: المرج أرض واسعة فيها نبت كثير تُمرج فيها الدواب. وجمعها مروج وأنشد:

«رعى بها مرج ربيع مُمرَجا» انتهى

فأصبح في الكف نصان على عجمة المرج وكونها من أصل فارمي: أحدهما لابن سيده، والآخر للجواليقي.

وقد وقع الشك في قول ابن سيده لأندلسيته وبعده عن بلاد الفرس ومجالسهم أما الجواليقي فأمره على العكس. ولم نعثر على قول في عروبة «المرج» سوى ما قرأناه في «شفاء الغليل» للخفاجي: فقد أشار الى الأمرين عجمته وعروبتــه. وهذا نصه «مَرَج: قيل هو معرَّب أو هو عربي. وهو ما تَمرَج الدواب فيه»

فقوله «أو هو عربي» يحتمل أن يكون جاء به من عند نفسه ، كما يحتمل أن يكون قوله بعروبته منقولاً عن غيره . على ان ذكر الخفاجي للمرج في كتابه الخاص بالمعربات يشير من طرف خفي الى أنه يرجّح عجمته ولذا عدّه في «المعربات» . وقد استفدنا من «الخفاجي» خلاف ما كنا نعتقد من أن عروبة المرج لم يصرح بها أحد ، فقد صرّح بها ولكن المصرّح ـ أعني الخفاجي ـ متأخر أعني من رجال القرن الحادي عشر للهجرة بينما «ابن سيده» و«الجواليقي» كلاهما عاش في الخامس والسادس للهجرة (١) وقدَمها في اللغة أرسخ من قدَمه كما ان قدَمها أصلح للاحتجاج من قدَمه . وقالوا في ترجمة الجواليقي كما في ابن خلكان إنه كان متديناً ثقة كثير الضبط يكثر من قول «لا أدري» وأنه كان من مفاخر بغداد . ومثله ما جاء في بغية الوعاة : «انه كان متثبتاً صدوقاً لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق» .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وابن سيده إن شك المشككون في الاعتداد بقوله لبُعده عن بلاد فارس واستبعاد مثاقفته أهلها ومعاشرتهم والأخذ عنهم ـ فان «الجواليقي» الذي قال «إن المرج فارسي معرب» قد أجمع المترجمون له على أنه عاش في بغداد جارة فارس ، لا بل تكاد ـ بما توطّنها من أبناء فارس ـ تعد وسَطاً فارسياً ، وناهيكم البرامكة وأُبّهتهم ومجالس الأدب في قصورهم . وقد أخذ الجواليقي اللغة والأدب عن أئمة زمنه . وأشهرهم «ابن الخطيب التبريزي» شارح الحماسة وتلميذ المعرّي : فالجواليقي عاش عمراً مع التبريزي الفارسي ، وخلَفه في تدريس اللغة والأدب في المدرسة النظامية ، والأرجح أن عجمة «المرج» إنما اقتبسها الجواليقي

(١) توفي ابن سيده سنة ٤٥٨ ه والجواليقي سنة ٥٤٠ ه وولادته كانت سنة ٤٦٥ ه وتوفي الخفاجي سنة ١٠٦٩ ه .

منه - أي من التبريزي - : فقد قال مترجموه إنه « أي الجواليقي » روى عن التبريزي في كتابه « المعرب » مراراً .

هذا نموذج ممن عاشرهم الجواليقي من أساتيذه الفرس أما من عاشرهم من تلاميذه الفارسيين فأشهرهم أبو سعد السمعاني المروزي صاحب كتاب الأنساب . وقد توفي في « مرو » من بلاد فارس بعد أن قضى زمناً في بغداد يتلقى اللغة والأدب عن أستاذه الجواليقي مع تلاميذه الآخرين الذين منهم ابن الجوزي وابن الأنباري وغيرهما . فاذا كان للمشككين في فارسية المرج مصدر أو حجة وراء ذلك له اتصال بفارس وأهلها ولغتها فحسبهم وحسبنا هذا الجواليقي وكتابه « المعرَّب » الذي قال فيه القائلون : « إنه لم يعمل في جنسه أكبر منه » .

المغربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهرست مؤلفات

محيي الدين ابن عربي

(٥٦٠ – ٦٣٨ هـ)

بقلمه

عُني بتحقيقه

كوركيس عوّاد

— ٤ —

المستدرك

١ – آداب القوم [١] .

٢ – الإجابة على أسئلة الترمذي [٢] .

٣ – إجازة كتبها للسلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل [٣] : ذكر فيها طائفة كبيرة من مؤلفاته ، وما روى عن أشياخه ، وما له من نثر ونظم .

٤ – الأجوبة على مسائل شمس الدين اسماعيل بن سودكين النوري بحلب عن أعلى المراتب التي انتهى اليها همم الرجال [٤] .

---

(١) الأزهر ٣ : ٥٢٧ .

(٢) الأزهر ٣ : ٥٣٠ . الاسكندرية : تصوف ٣٤ . وفي برمنكهام (الرقم ٦٨٧): « الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذي الحكيم » .

(٣) برلين ٢٩٩٢ (٤) .

(٤) جون ريلندز ١٠٦ (٥) . تذكرة النوادر ٣٦٧ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥ — الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفائقة (١) .

٦ — الأحاديث القدسية (٢) .

٧ — أسرار الحروف (٣) .

٨ — أسرار الخلوة (٤) .

٩ — أسرار الذات (٥) .

١٠ — أسرار الوحي في المعراج (٦) .

١١ — أسرار الوضوء (٧) .

١٢ — أسفار في سفر نوح (٨) .

١٣ — الاصطلاحات الصوفية (٩) .

١٤ — أصول المنقول (١٠) .

---

(١) الأزهر ٣ : ٥٣٠ . آصفية : تصوف ١٩ (٤) ٨٩ (٢) . فينة ١٩١٠ . للمكتب الهندي ٦٥٩ .

(٢) طبعت في القاهرة « ٣٥ ص » . ومنها نسخ خطية في غوطا ٣ (٥) ٥٦٤ (٢) . برمنكهام ٦٤٩ . وفي كشف الظنون (٣ : ٤١٩) : « الرياض الفردوسية في الأحاديث القدسية » فلعلها هي .

(٣) المتحف البريطاني ٧٥٤ (٤) . وفي خزانة دار الفنون (استانبول) ١٦ « رسالة في سر الحروف » : فلعلها هي .

(٤) بانكيبور ٨٨٤ .

(٥) عقود الجوهر . ص ٣٣ .

(٦) عقود الجوهر . ص ٣٣ .

(٧) دار الكتب ١ : ٢٦٦ .

(٨) غوطا ٥ ، ٢ Pers .

(٩) نشرها فلوجل في آخر كتاب « التعريفات » للجرجاني (ليبسك ١٨٤٥ . ص ٢٨٢ – ٢٩٨) . ومنها نسخ خطية في : الأوقاف ببغداد ٤٨٨٧ (٧) . خزانة العزاوي ببغداد . الخزانة القادرية ببغداد . بانكيبور ٨٨٦ . الأزهر ٣ : ٥٦٨ (نسختان) . دار الكتب ١ : ٢٦٧ . ليدن ٣٠ أياصوفيا ٢٠٤٨ (٢) مكتبة المشهد الرضوي ٤ : ٩ ١ الرقم ٥١٢ . نافذ ٣٨٤ ، ٦٣٢ . عمومية ٣٧٥٠ . باتنا ٢ : ٤١٢ . المكتب الهندي ٦٥٧ (٧) . الفاتيكان ٥ : ٢٩٦ .

(١٠) عقود الجوهر . ص ٣٠ .

١٥ — الإعلام فيما بُني عليه الإسلام [١] .

١٦ — الإفادة لمن أراد الاستفادة [٢] .

١٧ — الإفاضة في علم الرياضة [٣] .

١٨ — الإمام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين [٤] .

١٩ — الانتصار [٥] .

٢٠ — انخراق الجنود الى الجلود وانفلاق الشهود الى السجود [٦] .

٢١ — إنشاء الجسوم الانسانية [٧] .

٢٢ — إنشاء الدوائر الإحاطية على الدقائق على مضاهاة الإنسان للخالق والخلائق [٨] .

٢٣ — الأنوار [٩] « رسالة » .

٢٤ — أوراد الأسبوع [١٠] .

٢٥ — أوراد الأيام والليالي [١١] .

٢٦ — بحر الشكر في نهر الفكر [١٢] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) برلين ٢٩٤٣ .

(٢) برلين ٢٩٣٧ .

(٣) اياصوفيا ٢١٦٠ [٤] Ritter .

(٤) دار الكتب ١ : ٢٦٨ . المتحف البريطاني ١٣٧١ [١] . برمنكهام ٦٧٦ .

(٥) تذكرة النوادر ٣٠٦ .

(٦) المتحف العراقي ٥٩٧ [٣] وهي بخط المؤلف .

(٧) الاسكوريال ٢ : ٥٣٠ [٣] .

(٨) الخالدية بالقدس (تصوف ٣٦) . الجمعية الآسيوية في البنغال ٦٢٨ [٢] . برمنكهام ٦٦٩ . وفي خزانة المتحف العراقي (الرقم ٢١٣٩) : « مضاهاة الأكوان فيما يقابله من الانسان » .

(٩) غوطا ٥ ، ٥ Pers . باريس ٢٤٠٥ .

(١٠) مدرسة عبد الرحمن جلبي الصائغ بالموصل (مخطوطات الموصل ص ١٥٤ الرقم ٤٧). برلين ٣٧٧٣ — ٣٧٧٥ . المكتب الهندي ٣٩٣ . بدليان ١ : ١٢٠ ، ٢ : ٢٤٩ .

(١١) دار الكتب ١ : ٢٧٠ (٤ نسخ) . المتحف البريطاني ١٠٣ .

(١٢) المتحف العراقي ٥٩٧ [٤] وهي بخط المؤلف .

٢٧ — البحر المحيط الذي لا يُسمع لموجه غطيط [١] .

٢٨ — بقية من خاتمة رسالة الرد على اليهود في بيان المعنى الموعود [٢] .

٢٩ — بلغة الغوّاص في الأكوان الى معدن الإخلاص في معرفة الإنسان [٣] .

٣٠ — بيان الأسرار للطالبين الأبرار [٤] .

٣١ — البيان في حقيقة الانسان [٥] .

٣٢ — تائية ابن عربي [٦] ، وهي قصيدة أولها :

تنزهتُ لما أن حضرتُ بحضرتي   ووحدتُ في ذاك المقام بنظرةِ

٣٣ — تجلي الإشارة من طريق السر [٧] .

٣٤ — تجليات الشاذلية في الأوقات السحرية [٨] .

٣٥ — تجليات عرائس النصوص في منصات حكم الفصوص [٩] .

٣٦ — تحرير البيان في تقرير شُعب الإيمان ورُتب الاحسان [١٠]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) عقود الجوهر . ص ٣١ .

(٢) للمتحف العراقي ٥٩٧ (١٠) وهي بخط المؤلف .

(٣) الاسكوريال ٢ : ٤١٧ (٣) . الأزهر ٣ : ٥٤٤ . الاسكندرية : تصوف ٣٣ . باريس ٢٤٠٥ (٦) . ولي الدين ١٨٢٢ (٣) . برمنكهام ٦٧٥ .

(٤) الأزهر ٣ : ٥٤٥ .

(٥) عقود الجوهر . ص ٣١ .

(٦) الأزهر ٣ : ٥٤٦ (نسختان) . تركة الشيخ ابراهيم عثمان ببغداد . ليدن ٧٠١ . الظاهرية ص ٤٩ . وقد شرحها عبد الله البسنوي بعنوان « قرة عين الشهود ومرآة عرائس معاني الغيب والوجود » . ومن هذا الشرح نسخة في الظاهرية ص ٤٩ .

(٧) عقود الجوهر ص ٣١ .

(٨) دار الكتب ١ : ٢٧٥ .

(٩) طُبع في بولاق سنة ١٢٥٢ هـ . ومنه شروح باللغة التركية لعبد الله البسنوي . ومنه نسخة خطية في الأوقاف ببغداد (٤٨٢٧ (٢)) بخط عبد الله بن احمد الحولاني الاشبيلي سنة ٦٠٦ هـ بمدينة حلب . جاء في آخر هذا المخطوط تعليق للمؤلف هذا نصه : « قرأه عليّ صاحبنا البرهان ابو محمد عبد الله بن علي ابن احمد الحولاني . وكتبه مصنفه في سنة ست وستمائة .. » .

(١٠) الأوقاف ببغداد ٤٨٨٧ (٤) .

٣٧ — تحفة السَّفَرَة الى حضرة البررة [١] .

٣٨ — تحقيق الباء وأسرارها [٢] .

٣٩ — التدقيق في بحث التحقيق [٣] .

٤٠ — تذكرة التوابين [٤] .

٤١ — تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص [٥] .

٤٢ — ترتيب السلوك الى ملك الملوك [٦] .

٤٣ — ترجمان الألفاظ المحمدية [٧] .

٤٤ — تشنيف الأسماع في تعريف الإبداع [٨] .

٤٥ — تفسير آية الكرسي [٩] .

٤٦ — تفسير قوله تعالى : يا بني آدم [١٠] .

٤٧ — التقديس الأنور ، نصيحة الشيخ الأكبر [١١] .

٤٨ — تلقيح الأذهان [١٢] .

---

(١) طُبع في الأستانة سنة ١٣٠٠ هـ . في ١٦ ص . وطُبعت ترجمته التركية في استانبول سنة ١٣٠٣ هـ . ومنه نسخ خطية في : دار الكتب ١ : ٢٧٦ · برلين ٢٩٢٥-٢٩٢٦ · جامع بكر افندي بالموصل (مخطوطات الموصل ص ٧٣ الرقم ٦؛ ضمن مجموعة) .

(٢) عقود الجوهر ص ٣١ .

(٣) برلين ٢٩٥٣ .

(٤) نافذ ٣٧٣ .

(٥) برلين ٢٨٩٩ ، فينة ١٩٩٣ (٢٤) ، باريس ١٣٣٨ (٢) ، غوطا ٦٧٠ .

(٦) برلين ٢٩٤١ ، فينة ١٩١٠ (٥) ؟ المكتب الهندي ٦٥٧ (؟) .

(٧) برلين ٢٩٦٧ - ٢٩٦٨ .

(٨) جون ريلندز ٣٧١ (٢) .

(٩) سورة البقرة ٢٥٦ . ومنها نسخة في برلين ٢٩٤٨ .

(١٠) التيمورية ٣ : ٢٠١ .

(١١) لها شرح لرجل مجهول ، في الأزهر ٣ : ٥٩٣ .

(١٢) عقود الجوهر ص ٣١ .

٤٩ — تمهيد التوحيد [١] .

٥٠ — التنبيهات [٢] .

٥١ — تنزّل الأرواح بالروح، أوديوان المعارف الإلهية واللطائف الروحوية [٣] .

٥٢ — تنزّل [تنزّلات] الإملاك للأملاك في حركات الأفلاك [٤] .

٥٣ — التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية [٥] .

٥٤ — التوقيعات [٦] .

٥٥ — ثواب قضاء حوائج الإخوان وإغاثة اللهفان [٧] .

٥٦ — جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام [٨] .

٥٧ — جامع الوصايا [٩] .

٥٨ — جذوة الاصطلاء وحقيقة الاجتلاء [١٠] .

٥٩ — الجفر الأبيض [١١] .

٦٠ — جفر الإمام علي بن أبي طالب [١٢] .

---

(١) عقود الجوهر ص ٣١ . ولعله «توحيد التوحيد» ومن هذا نسخة في برلين ٢٩٥٢.
(٢) الأزهر ٣ : ٥٥٤ .
(٣) باريس ٢٣٤٨ [٢] .
(٤) الاسكندرية : تصوف ١٢ (نسختان) ، المجلس الملي (طهران) ٣٨ ، شهيد علي ١١٥٥ ، برلين ٢٩٥١ .
(٥) الأزهر ٣ : ٥٥٤ .
(٦) دار الكتب ١ : ٣٠٦ و ٣٤٥ (٣ نسخ) .
(٧) باريس ١٦٩٩ [١٤] .
(٨) كشف الظنون ٢ : ٤٩٩ .
(٩) عقود الجوهر ص ٣٢ .
(١٠) جامعة يايل بامیركة ٦٤ وهذه النسخة قديمة ، كتبت سنة ٦٠٦ هـ في رباط السميساطي بدمشق . انظر : « جولة في دور الكتب الأميركية » ص ٧٤ و « المخطوطات العربية في دور الكتب الأميركية » ص ١٧ وكلاهما لنا .
(١١) الشيخ محمد امين الترمذي (فهرس سباط ٦٦٤) .
(١٢) ليبسك ٨٣٣ [١] .

٦١ — الجفر الجامع (١) .

٦٢ — جفر النهاية ومبين خبايا أسرار كنوز البداية والغاية (٢) .

٦٣ — الجلا في استنزال الملأ الأعلى (٣) .

٦٤ — الجلالة (٤) وهو كلمة الله .

٦٥ — الجواب عن الأبيات الواردة (٥) .

٦٦ — جواب عن مسألة السبحة السوداء وهي الهيولى (٦) .

٦٧ — الجواب المستقيم (٧) .

٦٨ — الحج الأكبر (٨) .

٦٩ — حرف الكلمات وحرف الصلوات (٩) .

٧٠ — حزب (١٠) .

٧١ — حزب التوحيد (١١) .

---

(١) الاسكندرية : حروف ٩ .

(٢) الجزائر ١٥٢٢ .

(٣) عقود الجوهر ص ٣٢ .

(٤) طبع ضمن « مجموعة الرسائل » لابن عربي (حيدر آباد ١٣٦٣ هـ ، ١٣ ص) وهو ثاني ما في المجموعة . ومنه نسخ خطية في الأزهر ٣ : ٥٥٧ ، دار الكتب ١ : ٣٤٥ (نسختان) ، آصفية : تصوف ٤٩ ، فاتح ٥٣٧٨ ، جار الله ١٠٨٠ ، برلين ٢٩٥٩ ، باريس ١٣٣٩ (٢) ٦٦٤٠ ، للمتحف البريطاني ٨٨٦ (٢٠) .

(٥) فى دار الكتب المصرية (١ : ٣١٥) نسختان خطيتان من شرحها لعبد الغني النابلسي .

(٦) دار الكتب ١ : ٢٤٦ ، برلين ٢٩٦٠ .

(٧) عمومية ٣٧٥ ، ياتنا ٢ : ٤١٠ ، برلين ٢٩٩٨ .

(٨) قصيدة طويلة بقدر نصف ديوانه ، ذكرت في كشف الظنون ٣ : ٢٨٩

(٩) كشف الظنون ٣ : ٤٩ .

(١٠) الاسكندرية : فوائد وأدعية ٢٣ ، برلين ٣٦٨٧ (٢) . وفي دار الكتب (١ : ٣٢١) « شرح الحزب الأكبر لابن عربي » للشيخ حجازي بن محمد السنديوني العباسي الأحمدي .

(١١) دار الكتب ١ : ٢٨٨ .

٧٢ — حزب الدور الأعلى [١] .

٧٣ — حزب الفتح [٢] .

٧٤ — حِكَم [٣] .

٧٥ — حوض الحياة [٤] .

٧٦ — خاتمة رسالة الرد على اليهود [٥] .

٧٧ — خروج الشخوص من بروج الخصوص [٦] .

٧٨ — خلق الأفلاك [٧] .

٧٩ — خلق العالم ومنشأ الخليقة [٨] .

٨٠ — الخلوة [٩] .

٨١ — الدر المكنون في العقد المنظوم [١٠] .

٨٢ — الدرة الناصعة من الجفر والجامعة [١١] .

---

(١) دار الكتب ١ : ٢٨٨ .

(٢) دار الكتب ١ : ٢٨٩ .

(٣) الأوقاف ببغداد ٦٤٩١ (٩) ، دار الكتب ١ : ٢٩٠ ، الاسكندرية : تصوف ١٥ و ٤٢ ، برلين ٨٦٨٧ ، خزانة العزاوي ببغداد ، كامل الغزي (سباط ٦٥٦) . مصطفى طلس (سباط ٦٥٦) .

(٤) خزانة يعقوب سركيس ببغداد ١٨٢ ، دار الكتب ١ : ٢٩٢ .

(٥) المتحف العراقي ٥٩٧ (٥) وهي بخط المؤلف .

(٦) المتحف العراقي ٥٩٧ (٢) وهي بخط المؤلف .

(٧) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٨) الأوقاف ببغداد ١٠٠٣٨ .

(٩) الظاهرية (حبيب زيات ص ٥٠) ، الجمعية الآسيوية في البنغال ٦٣٨ (٦) ، الأزهر ٣ : ٥٦٤ [الخلوة المطلقة] ، برلين ٢٩١٦ — ٢٩١٧ ، المتحف البريطاني ٨٨٦ (٢٥) ، المكتب الهندي ٦٥٧ (٢) ، باتنا ١ : ١٢٨ و ٤٠٨ ، دار الكتب ١ : ٣٠٢ (٤ نسخ) ، الاسكندرية : تصوف ٣٧ ، وفي جامع بكر افندي بالموصل (مخطوطات الموصل ص ٧٥ الرقم ٧٤ (١٥)) كتاب « آداب السلوك في الخلوة » فلعله هو .

(١٠) الأوقاف ببغداد ٩٦٧٩ (١) .

(١١) كشف الظنون ٣ : ٢٠٠ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨٣ – الدرة البيضاء في ذكر مقام العلم الأعلى (١) .

٨٤ – الدرر (٢) .

٨٥ – دعاء ليلة النصف من شعبان ، ودعاء آخر السنة ، ودعاء أول السنة ، ودعاء يوم عاشوراء (٣) .

٨٦ – دعاء يوم عرفة (٤) .

٨٧ – الدواهي والنواهي (٥) .

٨٨ – الدور الأعلى « والدر الأعلى » (٦) .

٨٩ – ديوان (٧) .

٩٠ – ديوان إشراق البهاء الأمجد على ترتيب حروف الأبجد (٨) .

٩١ – ديوان المرتجلات (٩) .

---

(١) الأوقاف ببغداد ٧٠٧١ (٢٤) .

(٢) الاسكندرية : تصوف ٣٣ .

(٣) جون ريلندز ١٠٥ (٣) .

(٤) الجمعية الآسيوية في البنغال ٨٧٥ .

(٥) ذُكر عرضاً في كشف الظنون ٣ : ٥٤٣ .

(٦) وورد أيضاً : الدر الأعلى . دار الكتب ١ : ٢٩٨ (٧ نسخ) ، قوله ١ : ٢٠٤ ، برلين : ٢٩٧ – ٢٩٧٥ ، بطرسبرغ ٣٤٣ ، المتحف البريطاني ١٠٣ ، برمنكهام ٦٧٩ و ٦٨٠ ، وفي دار الكتب (١ : ٣٣١) : « الطور الأعلى على الورد المسمى بالدور الأعلى لمحيي الدين ابن عربي » للشيخ محمد القاوقجي الطرابلسي ، طُبع في دمشق سنة ١٣٠١ هـ . وقد مرّ بنا في الرقم ٧٢ « حزب الدور الأعلى » وذاك ليس بهذا .

(٧) طُبع على القاعدة الفارسية طبعة جميلة جداً في القاهرة سنة ١٢٧٠ هـ (٤٧٨ ص) . وطُبع على الحجر في بومبي ، بدون تاريخ ، في ٢٤٤ ص ، ومنه نسخ خطية في : خزانة الامام الأعظم ببغداد . ليدن ٧٠٠ ، جامعة يايل بأميركا ٣٤ ، دار الكتب ٣ : ١٠٩ ، اللزامية (بنزرت بتونس) : تصوف ١٦ ، وفي خزانة الأوقاف ببغداد (لرقم ٩٩٧٤) شرح الديوان . وفي الرقم ١٠٠٧٠ (٢) ايضاً قطعة منه .

(٨) برلين ٧٧٤٧ ، دار الكتب ٣ : ١٠٩ .

(٩) برلين ٧٧٤٦ .

٩٢ – ردّ معاني الآيات المتشابهات الى معاني الآيات المحكمات [١] .

٩٣ – رسالة أرسلتها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهدوي [٢] .

٩٤ – رسالة الاستخارة [٣] .

٩٥ – الرسالة البرزخية [٤] .

٩٦ – رسالة تتضمن جواباً له الى بعض إخوانه [٥] .

٩٧ – رسالة التوحيد [٦] .

٩٨ – رسالة في آداب الشيخ والمريد [٧] .

٩٩ – رسالة في الاحادية [٨] .

١٠٠ – رسالة في أحوال تقع لأهل الطريق [٩] .

١٠١ – رسالة في الاستمداد الكلي [١٠] .

١٠٢ – رسالة في اسمه تعالى الحسيب [١١] .

١٠٣ – رسالة في بعض أحوال النقباء [١٢] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) طبع بمطبعة الاستقامة – بيروت ١٣٢٨ هـ ، ٦٠ ص .

(٢) في الأزهر (٣ : ٥٦٩) : « رسالة كتبها لابن عمه ابي الحسين علي بن عبد الله ابن محمد بن عربي خاصة" والى أصحاب العلامة ابي محمد عبد العزيز بن ابي بكر القرشي المهدوي عامة" ، فينة ١٩١٠ .

(٣) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٤) باتنا ٢ : ٤٨٩ .

(٥) الاسكندرية : تصوف ٣٣ .

(٦) فاتح ٢٦٣٠ .

(٧) الأزهر ٣ : ٥٦٨ .

(٨) غوطا ٤ ، ٥ Krafft ; pers : مخطوطات المجمع الشرقي في فينة ٤٩٦ .

(٩) دار الكتب ١ : ٣٠٣ .

(١٠) الأوقاف ببغداد ٧٠٧١ (٣٣) .

(١١) الاسكندرية : تصوف ٣٤ .

(١٢) عقود الجوهر ، ص ٣٣ .

١٠٤ — رسالة في بيان سلوك طريق الحق (١) .

١٠٥ — رسالة في بيان مقدار سنة السرمدين وتعيين الأيام الإلهية (٢) .

١٠٦ — رسالة في تحقيق وجوب الواجب لذاته (٣) .

١٠٧ — رسالة في ترتيب التصوف على قوله تعالى : التائبون العابدون (٤) الآية (٥) .

١٠٨ - رسالة في التصوف (٦) .

١٠٩ — رسالة في تصوير آدم على صورة الكمال (٧) .

١١٠ — رسالة في الجواب عن سؤال عبد اللطيف البغدادي (٨) .

١١١ — رسالة في الحشر الجسماني (٩) .

١١٢ - رسالة في الحكمة (١٠) .

١١٣ — رسالة في رجال الغيب (١١) .

١١٤ — رسالة في رقائق الروحانية (١٢) .

١١٥ — رسالة في سلسلة الخرقة (١٣) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٢) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٣) فنون ١٤٩ (٦) .

(٤) سورة التوبة ١١٣ .

(٥) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٦) دار الكتب ١ : ٣٠٥ وفيها ذكر له ست رسائل مختلفة في التصوف . الاسكندرية : تصوف ١٧ .

(٧) دار الكتب ١ : ٣٠٦ .

(٨) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(٩) الاوقاف ببغداد ٧٠٧١ (٨) .

(١٠) المجلس للملي (طهران) ٦١٧ (٥) .

(١١) عقود الجوهر ص ٣٣ .

(١٢) عقود الجوهر ص ٣٣ .

١٣) الأزهر ٣ : ٥٦٨ .

١١٦ — رسالة في شرح مبتدأ الطوفان (١) .

١١٧ — رسالة في طريق التوحيد (٢) .

١١٨ — رسالة في علم الزايرجة (٣) .

١١٩ — رسالة في معرفة الله تعالى (٤) .

١٢٠ — رسالة في معرفة النفس والروح (٥) .

١٢١ — رسالة في نعت الأرواح (٦) .

١٢٢ — الرسالة القبطية (٧) .

١٢٣ — الرسالة القدسية (٨) .

١٢٤ — رسالة القلب وتحقيق وجوه المقابلة لحضرات الرب (٩) .

١٢٥ — رسالة كتبها الى الامام فخر الدين الرازي (١٠) .

١٢٦ — الرسالة المريبة (١١) .

---

(١) المتحف العراقي ٥٩٧ (٥) وهي بخط المؤلف .

(٢) دار الكتب ١ : ٣٠٨ .

(٣) جون ريلندز ٣٧١ ، يوسف الناديلي (فهرس سباط ٦٦٥) ، محمد أمين الترمذي (سباط ٦٦٥) ولعلها « سلم الارتقاء » في علم الزايرجة ، المذكور في عقود الجوهر ٣٤ .

(٤) باتنا ٢ : ٤٢٧ .

(٥) نشرها المستشرق اسين بلاسيوس ، بترجمة اسبانية ، في أعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد في الجزائر سنة ١٩٠٥ « ٣ [باريس ١٩٠٧] ص ١٥٦ — ١٩١ » .

(٦) المتحف البريطاني ٨٨٦ (١٤) ، برلين ٢٩٤٠ ولعلها « كتاب الروح » المذكور في كشف الظنون ٥ : ٨٨ .

(٧) كامل الغزي (فهرس سباط ٦٦٠) ، مصطفى طلس (سباط ٦٦٠) .

(٨) كشف الظنون ٣ : ٤٢٧ .

(٩) كشف الظنون ٣ : ٤٢٩ .

(١٠) الظاهرية (حبيب زيات ٤٩) ، الأزهر ٣ : ٥٦٩ ، محمد أمين الترمذي (سباط ٦٢٢) ، تذكرة النوادر ٣٥٠ ، براون ص ٢٩٠ .

(١١) كامل الغزي (سباط ٦٦١) ، مصطفى طلس (سباط ٦٦١) .

١٢٧ – الرسالة المهيمنية [١] .

١٢٨ – الرسالة الموقظة [٢] .

١٢٩ – رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأحوال [٣] .

١٣٠ – رشح المعين في كشف معنى النبوة [٤] .

١٣١ – الزهر الفائح في ستر العيوب والقبائح [٥] .

١٣٢ – سجنجل الأرواح ونقوش الألواح [٦] .

١٣٣ – سر المحبة [٧] .

١٣٤ – السر المكتوم [٨] .

١٣٥ – السؤال عن أفضل الذكر [٩] .

١٣٦ – الشجرة النعمانية والرموز الجفرية في الدولة العثمانية [١٠] .

(يتبع)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) عقود الجوهر ص ٣٣ .
(٢) دار الكتب ١ : ٣١٢ .
(٣) عقود الجوهر ص ٣٣ .
(٤) عقود الجوهر ص ٣٣ .
(٥) الاسكندرية : تصوف ٢١ .
(٦) كشف الظنون ٣ : ٥٨٢ .
(٧) دار الكتب ١ : ٣١٦ .
(٨) عقود الجوهر ص ٣٤ .
(٩) الأوقاف ببغداد ٧٠٧١ (٢٣) .
(١٠) الاسكندرية : حروف ٥ ، محمد امين الترمذي (فهرس سباط ٦٦٣) ، برمنكهام ٦٨٢ و ٦٨٣ . وفي خزانة الأوقاف ببغداد (١٠١٤٧) : « الدرة الفاخرة على رمز الشجرة » لمحيي الدين أبي العباس احمد بن علي بن محمد البوني القرشي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ وفي الاسكندرية : حروف ٤ « زهور البستان وشقائق النعمان فيما يحدث في دولة آل عثمان الى آخر الزمان » ، وهو شرح ، لم يذكر مؤلفه ، على رموز الشجرة النعمانية . وفيها (حروف ٨) : « اللمعة النورانية في مشكلات الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية » وهو شرح لصدر الدين القونوي المتوفى سنة ٦٧٣ هـ . وفيها أيضاً (حروف ١٢) : « الدائرة الكبرى الجفرية » وهو شرح آخر لها ، لمصطفى افندي ابن سهراب .

مقدمة المرزوقي

لشرح حماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

— ٤ —

(ومتى اعترف اللفظ والمعنى فيما تصوبُ به العقول فتعانقا وتلابسا متظاهرين في الاشتراك وتوافقا ، فهناك يلتقي ثريا البلاغة فيُمطَرُ روضها ، وينشر وشيها ، ويتجلى البيان ، فصيح اللسان ، نجيح البرهان ، وترى رائديْ الفهم والطبع متباشرَين لما من المسموع والمعقول بالمسرح الخصب والمكرع العذب) .

تخلص المرزوقي في هذا الكلام الى مقام الحكم بين مذهب أهل الألفاظ ومذهب أهل المعاني فبين أنه لا يتم للكلام حسنه وبلاغته إلا باجتماع شرف لفظه وشرف معانيه .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

واعتراف اللفظ والمعنى هو توافقهما وتآلفهما كالشخصين اللذين يعرف أحدهما الآخر ويألفه .

تصوبُ تمطر والصَّوْب المطر ويقال صوب المزن أي ماء السحاب ، شبَّه العقول المختارة للألفاظ والمنظمة للمعاني بالأسحبة وشبه ما تأتي به من محاسن الألفاظ وشريف المعاني بالمطر وأثبت الصوب بالمقول على طريقة الاستعارة المكنية مع كونها استعارة تبعية وهذه الاستعارة مأخوذة من قول أبي تمام في وصف الشعر :

ولكنه صوبُ العقول اذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب

وقد أتبع المؤلف استعارته هذه بتمثيل بناه عليها فشبه هيئة انهيال الصنائع البليغة الرائقة من آثار أهل البلاغة نثراً ونظماً ، وتلقيَ السامعين إياها ،

واهتزازَ أذواقهم لقبولها ، وإقبالَهم على الاختيار منها ، على حسب الأذواق ، شبَّه ذلك بهيئة عُروض السحاب في أغزر الأنواء إفاضة وهو نوءُ منزلة الثريا فتغزر معصراتها وتشتهر بين الأدباء كانتشار وشي الزرع في الرياض النضرة ، فتصبح الأدباء تفسر دقائقها للطلاب كما تبشرُ روادُ المراعي رعاءَ الحي بالمسارح الخصبة والمكارع العذبة فذكر هنا الهيئة المشبه بها ، وقد أشار الى الهيئة المشبهة بقوله فيما يأتي « ولتعرف مواطيءُ أقدام المختارين فيما اختاروه ومرامي أقلام المزيفين على ما زيفوه ويعلم أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتيِّ السمح على الأبيِّ الصعب » ، ولقد أجاد التمثيل ، فأصبح كلامه لقواعد الأدب خير تمثيل . وقوله « في الاشتراك » وقع في نسخة تونسية ونسخة الآستانة « الاشتراف » بفاء في آخره أي الارتفاع وهي أحسن لأن الاشتراك يغني عن قوله متظاهرَين إذ هو بمعنى متعاونين فيكون شبه الرفعة المعنوية برفعة السحاب إذا أخذ يتصاعد وينضم بعضه الى بعض ووقع في النسخة التونسية الأخرى الاشتراق بقاف في آخره ولا يستقيم .

وقوله تلتقي ثريا البلاغة في بعض النسخ بلتقي بياء الغائب وفي بعضها تلتقي بتاء الغائبة . وصيغة الالتقاء تقتضي ملاقاة شيئين وليس في عبارة المؤلف سوى الثريا ، فالظاهر أن صواب العبارة يَلْقَى بالمثناة التحتية المفتوحة وفتح القاف والضمير عائد الى ما تَصوبُ به العقول ، والمعنى فهنالك يقع ذلك الصوب في منزلة الثريا فيلقاها فيغزر مطره ، ويجوز أن يكون الالتقاء بمعنى التلقي مبالغة . والثريا من الأنواء الوسْمية أي الربيعية أي التي يكثر الأمطار في زمان طلوعها في بلاد العرب والمطر الربعي يُضرب المثلُ بشدته قال النابغة :

وكانتْ لهم ربعية يحذَرونها   اذا خضخضت ماء السماء القبائل [1]

(فاذا كان النثر بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى ، والنظم اتسع نطاق الاختيار

---

(١) القبائل قبائل الخيل جمع قبيلة وهي من اربعين من الخيل الى ستين .

فيه على ما بيناه بحسب اتساع جوانبها وموادها وتكاثر أسبابها ومَواتِها ، وكان الشعر قد ساواه في جميع ذلك وشاركه ثم تفرد عنه وتميز بأن كان حدُّه لفظ موزون مقفى يدل على معنى . فازدادت صفاته التي أحاط الحد بها بما انضم من الوزن والتقفية اليها - ازدادت الكلف في شرائط الاختيار فيه كان للوزن والتقفية أحكاماً تماثل ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تقارب . وهما يقتضيان من مراعاة الشاعر والمنتقد مثلَ ما تقتضيه تلك من مراعاة الكاتب والمتصفح لئلا يختل لها أصل من أصولها أو يعتل فرع من فروعها) .

في نسختي تونس ونسخة الآستانة « واذا » بالواو الموات الوسائل جمع ماتّة وهي الوسيلة الى الشيء لأنها تمت اليه أي تمد وتتوسل يقال مت بقرابة أي اتصل وتوسل . ومعنى كلام المؤلف ظاهر .

(واذا كان الأمر على هذا فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرفَ مواطئُ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم أقلام المزيفين على ما زيفوه ، ويعلمَ أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع) .

تخلص هنا الى تخصيص بحثه بالشعر وهو المقصود من هـذه المقدمة ولذلك سيقول فيما يأتي « فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر » وقد نبهنا آنفاً على أن هذه الفقرات تشير الى الهيئة المشبهة بهيئة السحاب والمطر في قوله آنفاً « فهنالك يلقي ثريا البلاغة فيمطر روضها الخ .. » .

والمصنوع هو الشعر الذي أُدخل فيه ما يسمى عند أهل الفن بالصنعة وهي التهذيب والتنقيح للشعر وإبداع المحاسن البديعية واللطائف اللفظية فكان علم أصحابه مكتسباً بالصنعة أي أن يعمدوا الى القواعد والنكت وصور الأمثلة التي تلقوها بالتعلم فيراعوها في منشئاتهم بالتروي والتثقيف فيكون شعرهم كالشيء المصنوع باليد وقد يقع بعض ذلك عفواً بدون تعمد ولا تكلف وهو الغالب

من شعر المولدين قال ابن رشيق [1] : « أشهر الشعراء في المصنوع ابن المعتز » .

والمطبوع هو الشعر الذي يصدر عن الشاعر بالسجية والطبيعة الناشئة عن تدربه بسماع أشعار البلغاء واندفاع طبيعته لمحاكاة أشعارهم حتى يصير الشعر البليغ له كالطبع فلا يصرف فيه تعمق روية ولا معاودة تنقيح وتثقيف .

(وفضيلة الأَتِيّ السمح على الأَبِيّ الصعب) .

تقدم بيان معنى الأَتِيّ والأَبِيّ في تفسير أول الديباجة ووصفَها هنالك بالمستسهل والمستنكر ووصفها هنا بالسمح والصعب . والسمح صفة من السماحة وهي لين الأخلاق وحسن المعاملة ، والصعب صفة من الصعوبة وهي الشدة في الخلق (فنقول وبالله التوفيق) :

(انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته) .

ضمير انهم عائداً الى الشعراء أو الى أهل نقد الشعر ، والمحاولة ابتغاء الشيء ورومه . والشرف حصول صفات الكمال النوعي ، فشرف المعنى أن يكون من أحاسن المعاني المستفادة من الكلام بأن يتلقى فهم السامع المعنى مستغنياً به في استفادة الغرض الذي يفاد به ، وقد وصف المؤلف المعنى هنا بالشرف والصحة ووصفَه فيما تقدم بالمعجبة الجزلة العذبة الحكيمة الزاهرة الفاخرة ، وطريقة صوغ المعنى الشريف هي أن يَلحظ البليغ ما يجيش في نفسه مما يريد إبلاغه الى نفس السامع فينشئه في نفسه ويكيفه بأحسن صورة يَرى أنها تقع لدى السامعين موقعاً حسناً يفي بمراد الشاعر ويليق بالغرض الشاعري ، متكلاً في تحصيل تلك الكيفية على فطنته ودربته المتولدة في ذوقه بما ورد على ذهنه من محاسن البلغاء والحكماء والعلماء فأكسب ذوقه صوراً غير جزئية يقيس عليها أمثالها إذا أراد التعبير ، بابتكار مماثلات لها جديدة أو بتصرف فيها يغيرها عن حالتها السابقة تصرفاً كثيراً أو قليلاً ويندفع اليها ذهنه سريعاً . ومن أكبر أسباب شرف

(١) صفحة ٨٥ من العمدة طبع مطبعة امين هندية بمصر .

المعنى أن يكون مبتكراً غير مسبوق ثم ان يكون بعضه مبتكراً وبعضه مسبوقاً وبمقدار زيادة الابتكار فيه على المسبوقية يدنو من الشرف ، ولأبي تمام وأبي الطيب ابتكارات كثيرة ويقرب منهما أبو نواس ثم ابن الرومي .

فاذا أنشأ ذوق البليغ معنى ، لاحت له منه محاسن المعنى ونقائصه ومعائبه فاحتفظ بالمحاسن وأكمله عن النقائص ومحا عنه المعائب ، فاذا تقوم فيه ما من شأنه أن يفيَ بأمله من إرضاء السامعين من أهل الصناعة وامتلاك استحسانهم فرواه محوكاً على منوال ما يحوك على مثله البلغاء فيما انتهت اليه مزاولته ودربته ، وثق بأنه معنى شريف .

فَعلِم أن شروط شرف المعاني تختلف باختلاف محالِّها من أغراض الكلام من إثارة حماس أو استعطاف وابساس أو غزل أو نسيب أو فخر أو ذب عن شرف أو نحو ذلك . قال ابن الأثير في المثل السائر « إن الكاتب أو الشاعر ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من الغائب اهـ » .

وهذا عمل محتاج الى صفاء قريحة وكرم سجية وطول دربة وحسن اقتداء وتمييز بين المقبول والمرفوض وقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر (١) من المعنى الشريف قول أبي الطيب :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

لولا لفظة تؤذي فيه فانها تؤذي . ولا يُتوهم من كلام ابن الأثير ولا من مادة شريف أن شرط المعنى كونه من الفضائل أو المعاني الحميدة فإنه لو كان ذلك مرادَهم لذهب معظم النسيب والهجاء ولذهب ما كان من الشعر كذباً ، بل مرادهم ما أفصح عنه قدامة في نقد الشعر (٢) إذ يقول : « إن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً

(١) صفحة ٨٨ .
(٢) صفحة ٤ ، ٥ .

حسناً ، غيرُ منكرٍ عليه ولا معيبٍ من فعله ذلك بل يدل على قوة الشاعر واقتداره على صناعته وإنما قدمت هذا لما وجدتُ قوماً يعيبون قول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه اهـ» .

وأما صحة المعنى في كلام المؤلف فهي في الدرجة الأولى للصعود في مصاعد الشرف أي أن لا يكون في المعنى اضطراب أو سوء ترتيب أو انتقاض بعضه ببعض فيصير الإنشاء أو الترسل أجوف ، قال ابن رشيق : «وفرقة من الشعراء أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا قليلاً كأبي القاسم ابن هانئ في قوله أول مذهبته :

أقامت فقالت وَقْعُ أجردَ شيظم وشامت فقالت لمعُ أبيضَ مِخذَم

وما ذُعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا بُرًى في مُخدَّم

فليس تحت هذين البيتين إلا أن هذه المنسب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة وقعَ فرس أو لمعَ سيف اهـ» .

على ان في قوله شامت خطأً لأن الشيم هو النظر الى البرق ليعلم أين يذهب ويتوسم أين يُمطر .

واعلم ان ضد المعنى الشريف المعنى السخيفُ لقلة جدواه أو لدلالته على تعلق تفكير صاحبه بصور ضعيفة كما خطب والٍ باليمامة في موعظة فقال : «إن الله لا يقار عبادَه على المعاصي وقد أهلك أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم» فلقبوه مقوم الناقة . ومن المعاني السخيفة قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فياليت شعري من يَهيم بها بعدي

وقد عابته سكينة ابنة الحسين . وضد المعنى الصحيح المعنى الخاطئ والمختل كما قال شعرور فيما أنشده الراغب الاصفهاني :

أَزُبيدةُ ابنةَ جعفر طوبى لزائرك المثاب
تُعطين من رجليك ما تعطي الأكفُّ من الرغاب

فانه أنشده بحضرتها فقام اليه الخدم ليضربوه لقوله تعطين من رجليك فمنعتهم وقالت إنه قصد مدحاً وأراد ما يقول الناس : شمالك أجود من يمينه فظن انه اذا ذكر الرِّجْل كان أبلغ وقد حمدنا ما نواه . وإن أساء فيما أتاه .

ومن عجيب ما عرض للشعراء من سخيف المعنى ما عرض لأبي العتاهية من قوله في رثاء الخليفة :

ماتَ الخليفة أيها الثقلان فكأنني أفطرتُ في رمضان

فان المصراع الثاني من سخيف المعنى وان بينه وبين المصراع الأول بوناً بعيداً . وقد نظرتُ في مجموع شرف المعنى وصحته وكيف يكتسبه البليغ فرأيت أن يقتدي مريد الإجادة بالذين شهد لهم البلغاء بالإجادة في غرض من أغراض المعاني فينسج على منواله : فاذا رام إثارة حماس جمع في ذهنه ما يلائم حالة الاستصراخ ، واستبطاء النصير ، وتخيُّلَ المستنجدُ هضيم الجانب ذا جناح كسير . فاجتهد أن يكثر من المعاني التي من شأنها إثارة حمية المخاطب واقتداره وعلى هذا المنوال ينسج . ومن صور صحة المعنى أن يكون مطابقاً للواقع كما قال حسان :

وإنَّ أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

ولكن ذلك ليس بشرط على الاطلاق وخاصة في الشعر فان الشعر يبنى على المغالطه والخيال وهذا الشأن يختلف باختلاف الأغراض والمقامات فلكل غرض من أغراض الكلام ما يناسبه من صحة المعنى في بابه ، وللنثر مناسبات ليست للشعر وبالعكس وسيأتي للمؤلف ذكر الخلاف في أن أحسن الشعر أصدقه أو أكذبه أو أقصره .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

« يتبع »

رسالة حي بن يقظان

مع شرحها لابن سينا

- ٤ -

(ويتلوها مملكة كبيرة متنازحة [١] الأقطار ، كثيرة العمار ، بقعة [٢] لا يتمدنون ، إنما قرارهم قاع ، صفصف ، مفصول باثني عشر حداً . فيها ثمانية وعشرون محبطاً [٣] لا تعرج طبقة منهم إلى محط طبقة إلا اذا خلا من أمامها عن دورهم فسارعت الى خلافها وإن أمم الممالك التي قبلها ليسافر اليها وتتردد فيها [٤]) .

أشار بهذا الفصل الى الكواكب الثابتة .

وأشار بقوله متنازحة الأقطار الى عظم مقدار بعده عن الأرض وعظم مقدار دور سطحه ، إذ كان بعده من الأرض أعني بعد سطحه الأدنى خمسة وستين ألف ألف وثلثماية ألف وسبعة وخمسين ألف وخمس ماية ميل ، فيكون قطره ماية ألف ألف وثلاثين ألف ألف وسبعماية ألف وخمسة عشر ألف ميل ، فأما بعد سطحه الأعلى فلا سبيل الى معرفته ، واذا كان مقداره أعني مقدار دور سطحه الأدنى أربعمائة ألف وعشرة ألف ألف وثماني ماية الف [ورقة ١٠٠ ألف] وثمانية عشر ألفاً وخمسماية وسبعين ميلاً . فاذا ضرب ذلك في قطره المذكور حصل مساحة بسيط السطح الأدنى منه ، فأما مقدار دور سطحه الأعلى فلا سبيل الى معرفته أيضاً بعلة نحن نذكرها فيما بعد .

وأراد بقوله كثيرة العمار الى الكواكب الثابتة التي لا يعرف عددها ،

---

(١) أيضاً : متنزحة . (٢) ب : بداه . (٣) م، و ص : محطا .
(٤) ب : تتزود منها .

ولا تصل قوة البشر الى تحصيلها في جملة إلا انّ الذي أمكن قياسه وعرف منها عدده ألف واثنان وعشرون كوكباً ٠

وقوله بقعة (١) لا يتمدنون أي ان بقعتهم لا تنقسم الى مدن أي هي أجزاء يختص كل جزء منها بحركة ، وتحقيق ذلك أن حركاتها كلها حركة واحدة ، عرف ذلك من أنها لا يقرب بعضها من بعض ولا يبعد بعضها عن بعض بل هي محفوظة الأبعاد كأنها كلها مركوزة في جسم واحد يحرك هو ، فتحركها بحركته تلك ٠

إنما قرارها قاع صفصف اي فضاء واحد مستو غير منقسم الى بقاع مختلفة ، مفصول باثني عشر حدّاً ، أشار به الى منطقة هذا الفلك التي تسمى فلك البروج ، وقد قسموه في التوهم على اثني عشر قسماً سمي كل قسم منها باسم وهي الحمل والثور والجوزا والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وجعلها محطاً إذ كان مقدار مسير كل سائر من الكواكب الثابتة والمتحيرة مقيّساً الى فلك البروج ٠

الى محط طبقة الاّ اذا خلا مَن أمامها عن دورهم فسارعت الى خلافها على ما ذكرته فيما تقدم من حفظ أبعاد ما بينها فلا يلحق واحد منها محطاً حتى يجتمع معه في محط بل لا يحل واحد منهم محطاً إلاّ اذا سار عنه الذي تقدّمه ، فيحله هذا الثاني ، وقد انتقل عنه الأوّل ٠

ثم قال « وانّ أمم الممالك التي ٠٠٠٠ وتتردد فيها » أشار الى مسير الكواكب المتحيرة المذكورة فيما تقدم في فلك البروج ومسير (٢) كل واحد منها من برج الى برج ٠ وأشار بقوله تتردد فيها الى حركاتها [ورقة ١٠٠ ب] المستديرة التي تبتدي من موضع وتنتهي اليه بعينه ٠ فكأن الكواكب بدوراتها فيها وانتقالاتها بأعيانها مترددة فيها ٠

(١) أيضاً : بداء ٠ (٢) ايضاً : مصير ٠

(ويليها مملكة لم يُدرَك أفقها الى هذا الزمان ، لا مدن فيها ولا كور ، ولا يأوي اليها من يدركه البصر ، وعمارها الروحانيون من الملئكة لا ينزلها البشر ، ومنها ينزل على من [1] يليها الأمر والقدر وليس وراءها من الأرض معمّر [2]) .

التفسير : أشار بهذا الفصل الى الفلك التاسع المسمى الفلك المستقيم .

« وقوله : « لم يدرك ٠٠٠٠ الزمان » أي لم يعرف مقدار جرم هذا الفلك لأنه لا يوجد سبيل الى معرفة ذلك كما يوجد السبيل الى معرفة مقادير ساير الأجرام والكواكب ، وذلك لخلوه عن الكوكب الذي عرف مقداره إلاّ ان الأولى والأحرى أن نزيد مقداره على ما ضمّن من مقدار الفلك الثامن بأضعاف مضاعفة ، وذلك لعظم قوته الوافية بتحريك جميع ما دونه على سبيل القهر الحركةَ البالغةَ في السرعة التي بلغت [3] من غاية سرعتها واستوائها واتصالها الى [4] أن جعل الزمان متعلقاً بها دون غيرها من الحركات .

وقال : لا مدن فيها ولا كور أي لا ينقسم الى أجزاء يجري منها مجرى المدن كما كان ذلك في أفلاك المتحيرات .

قال : ولا يكون فيها من يدركه البصر أي لا كوكب فيها يجري منها مجرى العار والآوين الى المساكن .

ثم قال وعمارها الروحانيون من الملايكة أي لا ينسب الى الحلول بها ، والعمارة لها إلا النفوس الروحانية المسماة عند الجمهور بالملائكة .

لا ينزلها البشر أي ليس فيها كوكب جسماني يصح أن يوصف بوجه من الوجوه أنه بشر لانتهاء جسميته الى سطحه المحيط به [ورقة ١٠١ الف] الذي يجري منه مجرى البشرة من الحيوان لانتهاء جسمه اليه .

قال ومنها يتنزل على ما يليها الأمر والقدر أي انّ أمر الله تعالى هو الأمر

---

(١) ب : ما . (٢) مهو س : معمور . (٣) ب : بلغ .
(٤) غير موجود في ب .

المطلق وقدره الذي هو موجب القضاء والحتم يتنزل على سائر الموجودات بتوسط هذا الفلك ونفسه وعقله (١) على ما عرف ذلك من موضعه . ثم قال : وليس وراءها من الأرض معمر وأشار به الى تناهي الأجسام عنده ودلّ به على أن لا خلاء ولا ملاء يلي هذا الفلك بل عنده منقطع الأجسام ، وسطحه ينتهي الى لا شيء (٢) ، وقد علم في الحكمة الإلهية والطبيعية انه لا يجب أن ينتهي الجسم الى جسم آخر فلا يجب أن يستنكر ان هذا الفلك ينتهي الى سطحه الأعلى وليس يلي ذلك شيء من الأشياء لا خلاء ولا ملاء على أنه قد برهن على أنه لا يجوز أن يكون جسم غير متناه بالفعل ببراهين حقيقية .

(فهذان الاقليمان بها (٣) يتصل الأرضون والسماوات ذات اليسار من العالم التي هي المغرب) .

كان قد قسم الحد ذات يسار العالم التي جعلها المغرب الى اقليمين أي الأرضيات والسماويات ، وفصل أقسام كل واحد منها على ما مرّ ذكره ، فأجمل ها هنا ذلك وأعاد ذكره على سبيل إعادة ذكر النتيجة .

(فاذا توجهت منها تلقاء المشرق رفع لك اقليم لا يعمره بشر ، بل ولا نجم ولا شجر ولا حجر ، إنما هو برّ رحب ويمّ غمر ، ورياح محبوسة ، ونار مشبوبة) .

التفسير : قوله اذا توجهت ... المشرق أي عدلت الى النظر في الصورة . رفع لك إقليم ... ولا حجر أي يظهر لك ان أول الصور الملابسة للهيولى ليس بصورة الحيوان ولا النبات ولا المعادن بل تجد أول الصور أعني الصور الجسمانية صور الاسطقسات الأربع (٤) التي عبر عنها ، ودلّ عليها بقوله إنما هو بر رحب [ورقة ١٠١ ب] أي صورة الأرض . ويمّ غمر أي صورة الماء ، ورياح محبوسة أي صورة الهواء ، ونار مشبوبة أي صورة النار ، ولما سمى الهواء

(١) وفي ب زيادة بالهامش: وبسلوكه أولاً في هذا «مخطوط: هذه» الفلك وفي نفسه وعقله.
(٢) ب : لا الى شيء .
(٣) م و س : بها .
(٤) ب : الأربعة .

رياحاً جعلها محبوسة أي غير متحركة أي كان الحكماء يقولون إن الهواء راكد والريح هواء متحرك .

(وتجوزه الى اقليم يتلقاك [١] فيه جبال راسية ، وأنهار جارية [٢] ورياح مرسلة ، وغيوم هاطلة ، وتجد فيها العقيان واللجين والجواهر الثمينة والوضيعة أجناسها وأنواعها إلاّ انه لا نابت فيه) .

أشار بقوله : جبال راسية الى صور المعادن التي أولها صورة الجبال ، وانهار جارية أراد به صورة العيون ، والأنهار المنبعثة عنها .

ورياح مرسلة : أراد به الهواء المتحرك المتولد عن الأبخرة البخارية والأبخرة الدخانية ، وغيوم هاطلة : أراد بها السحاب الحادث المتولد عن البخار الرطب ، وأصناف الغيوث التي تهطل بها من المطر والثلج والبرَد .

وتجد فيها العقيان ، واللجين هو الفضة ، واقتصر عليها وإن كانت كثيرة مثل النحاس والرصاص وغير ذلك مما عدّ وشرح أمره في كتاب المعادن .

والجواهر الثمينة والوضيعة أراد بها غير المتطرقة وغير الذائبة كالياقوت والفيروزج والدهنج وغير ذلك . وقوله إلاّ أنه لا نابت فيه أي صور المعادن مباينة لصور النبات مفردة عنها .

(ويؤديك عبوره الى إقليم مشحون بما خلا ذكره الى ما فيه من أصناف النبات ، نجمة وشجرة مثمرة محببة [٣] ومبرزة لا تجد فيه من يُغذي ويضُر من الحيوان) .

[ورقة ١٠٢ الف] قال المفسر : أشار بهذا الفصل الى صورة النبات ، فان النبات له وفي تركيبه ومزاجه صورة [٤] المعادن وزيادة الصورة النباتية التي تجري منها مجرى الفصل المميّز بما هو نبات عام ، ثم ينقسم الى أنواعه التي

(١) م و س : تلقاك . (٢) موجود في ب فقط .
(٣) م و س : مُحبَّة . أحبّ وحبّب الزرع : صار ذا حبّ .
(٤) م و س : صور .

دلّ عليها بقوله نجمة وشجرة مثمرة وغير مثمرة ، محبية ومبرزة · وقد أشير في كتب النبات الى هذه الأنواع وذكر خواصها ، والأحوال التي يعرض لها من الاثمار وغير الاثمار والتحبيب وغير التحبيب ، والتبريز وغير التبريز ، ودوام الإيراق شتاءً وصيفاً وانتثار الأوراق عنها شتاءً ·

قوله ولا تجد فيها من يفيء ويضغز من الحيوان أي إن صور النبات في النبات متباينة لصور الحيوان مفردة عنها ·

(ويتعدّاه الى اقليم يجمع [1] لك ما سلف ذكره إلى أنواع الحيوانات العجم سابحها وزاحفها ودارجها ومدوّمها متولدها ومتوالداتها [2] إلا انه لا أنيس فيه · وتخلّص عنه إلى عالمكم هذا وقد دُللتم على ما يشتمله عياناً وسماعاً) ·

التفسير : أشار بهذا الفصل إلى صور الحيوان غير الناطق [3] الذي دل عليه بقوله « العجم » فإن له وفي تركيبه ومزاجه صور المعادن وصور النبات وزيادة الصورة الحيوانية التي تجري منها مجرى الفصل المميّز بما هو حيوان عام ، ثم ينقسم إلى أنواعه التي دلّ عليها بقوله « سابحها وزاحفها ...... ومتولدها ومتوالدها » وقد أُشير في كتب الحيوان الى هذه الأنواع وذكر خواصها ، والأحوال التي يعرض لها من تلك الجهات المذكورة ·

وقوله إلا أنه لا أنيس فيه أي إن أصناف هذه الحيوانات واقعة بحسب جنس هو الحي غير الناطق [4] ، فأما الحيوان الناطق فانه يشير اليه بقوله وتخلص عنه إلى عالمكم هذا أي صورة الانسان ، وقد دللتم [ورقة ١٠٢ ب] على ما يشمله عياناً وسماعاً أي قد عرفتم هذا النوع ، وعرفتم خواصه والأحوال العارضة له من حيث هو هذا النوع ·

(فاذا قطعتَ سمت المشرق وجدت الشمس تطلع بين قرنين للشيطان [5] ،

---

(١) م و ص : يجتمع · (٢) ايضاً : ومدوّمها ومتولداتها الخ ·
(٣) ب : الغير ناطق . (٤) ايضاً : الغير ناطق
(٥) م و ص : قرني الشيطان ، ك : قرني شيطان ·

فإن للشيطان قرنين قرن يطير وقرن يسير ، والأمة السيارة منها قبيلتان ، قبيلة في خلق السباع وقبيلة في خلق البهائم ، وبينهما شجار قايم دايم [١] ، وهما جميعاً ذات اليسار من المشرق ، وأما الشياطين التي تطير فان نواحيها ذات اليمين من المشرق ، لا تنحصر في جنس من الخلق بل يكاد يختص كل شخص منها بصيغة نادره ، فمنها خلق [٢] لبث من خلقتين أو ثلاث أو أربع [٢] كإنسان يطير وأفعوان له رأس خنزير ، ومنها خلق هي خداج من خلق مثل شخص هو نصف إنسان وشخص هو فرد رجل إنسان وشخص هو كف إنسان أو غير ذلك من الحيوان ، ولا يبعد أن يكون التماثيل المختلطة التي يرقمها المصوّرون منقولة من ذلك الإقليم) .

قال المفسر : قوله فاذا قطعت ... المشرق أي إذا نظرت من هذا الاقليم في صورته وملتَ في اعتباره أمره الى هذا الجزء منه وجدت الشمس تطلع من بين قرنين للشيطان ، أي وجدت الصورة الانسانية التي هي العقل الانساني هي طالعة مجرّدة من المادة بقوام ذاتها قائمة بنفسها صالحة لذلك البقاء بعد فساد البدن ، فانه دلّ على هذا المعنى بقوله « تطلع » كما دلّ بالأفول في موضع آخر على الانغماس في المادة والانطباع [٣] بها ، بل فسر بذلك قوله تبارك وتعالى حكاية عن ابرهيم صلواته وسلامه عليه [١٠٣ الف] « فلما أفل قال لا أُحبّ الآفلين » (سورة : ٧١ ، آية : ٧٦) . وقال فان الهوى في حظيرة المكان أفولٌ ما ، وذكر انها على هذه الصفة من بين ساير القوى التي جعلها قوتين أي صنفين من القوى ، وجعل القرنين جميعاً من الشياطين لبعدها [٤] عما وصف به العقل الإنساني من التجريد والبقاء ، والشيطان هو البعد .

---

(١) م و س : دايم وقايم .
(٢) ايضاً : فمنها خلق لبس في خلقتين او ثلاثة او اربعة .
(٣) م و س : الاطباع بها . ك : الانطباع بها .
(٤) م و س : من الشيطان لبعده . ك : من الشياطين لبعدها .

وفسر القرنين بقوله « قرن يطير وقرن يسير » ، وأراد بالقرن الذي يطير القوى المدركة من الإنسان ، وأراد بالقرن الذي يسير القوى المحركة منه وشبه الإدراك بالطيران وشبه التحريك بالسير لشدة حركة الطيران والوصول بها الى الأشياء النائية [١] ولبطوء حركة السير والوصول بها الى الأشياء القريبة .

ثم قسّم السيارة الى قسمين سماهما [٢] قبيلتين - قبيلة في خلق السباع ، أراد به [٣] القوة الغضبية وقبيلة في خلق البهائم ، أراد به القوة الشهوانية .

وبينها شجار قايم أشار به الى التجاذب الذي بينهما ، والتنازع الذي لكل واحد منهما مع الآخر وغلبة كل واحد منهما حال قوته <على> الآخر حال ضعفه ، وجعل محل صنفي هذا القرن السيار ذات اليسار من المشرق دلالة على خسة مرتبتها وقصورها عن مرتبة القرن الآخر الطائر الذي يجعل محله ذات اليمين بقوله : « وأما الشياطين التي تطير ، فان نواحيها ذات اليمين من المشرق ، وأراد بها القوة المتخيلة من الانسان . وذكر أنها لا تنحصر في جنس من الخلق ، وأراد به ما يختص به هذه القوة وما جبلت عليه [هذه القوة] من المحاكاة والتركيب والتفصيل ، فان سوسها محاكاة ، كلما أدركته النفس بشيء شبهته به ، وأيضاً تركيب الصور التي تدركها مفردة ، وتفصيل الصور التي يدركها مجموعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال بل يكاد يختص منها بصيغة نادرة أي إن كل شيء مدرك فانها تحاكيه بحكاية نادرة ويتصرف فيه على نوع من أنواع التركيبات والتفصيلات ، وعلى ذلك دلّ بقوله فمنها خلق ليث من خلقتين أو ثلاث أو أربع وأراد به عمل التركيب .

ومنها [١٠٣ ب] خلق هي خداج من خلق وأراد به عمل التفصيل ، ولا يبعد أن يكون التماثيل التي يرقمها المصورون منقولةً من ذلك الاقليم ، لولا هذه

---

(١) م و س : البعيدة . (٢) ب و ك : سماها .

(٣) م و س و ك : بها .

القوة المحاكية المركبة المفصلة لما أمكن المصورون أن يصوروا ما يصورونه من الصور النادرة العجيبة التي لا وجود لها في العالم بل لما وضعت من الخرافات والأكاذيب والأحاديث المختلفة المنفعلة ٠

(والذي يغلب على أمر هذا الاقليم قد رتب سككاً خمساً للبريد جعلها مسالح لمملكته فهناك يختطف من يستهوى من سكان هذا العالم ويستثبت الأخبار المنتهية منه ويُسلم من يستهوى الى[1] قيّم على الخمسة مرصد بباب الاقليم ومعهم الأبناء في كتاب مطوي مختوم لا يطلع عليه القيّم إنما له وعليه أن يوصل جميعه الى خازن يعرضه على الملك ٠ وأما الأسرى فيكلفهم[2] هذا الخازن ، وأما آلاتها فيستحفظها[3] خازن آخر[4] ٠ وكلما استأسروا من عالمكم أصنافاً من الناس والحيوان وغيره يتناسلوا على صورهم مزاجاً منها أو اخراجاً إياها) ٠

والذي يغلب على أمر هذا الاقليم أراد به النفس الانساني الذي هو أصل ومفيض لساير القوى البدنية ـ ومرتب اياها في مراتبها الخاصة بها ٠ قد رتب سككاً خمساً للبريد ، أراد به الحواس الخمس الظاهرة من السمع والبصر والشم والذوق واللمس التي جعلت في البدن كأصحاب الأخبار في المملكة ٠

قال وجعلها أيضاً مسالح لمملكته أي جعلها كمواضع الأسلحة ، وأصحاب الأسلحة يستهون سكان هذا العالم أي يصيدون صورها ويستثبتونها في ديوانها ويجردونها عن موادها ضرباً من التجريد[5] ٠ قال فهناك يختطف من يستهوي ويستثبت الأخبار المنتهية منه أي يعمل بالأشياء الواردة على الحس عملين ـ أحدهما الفتك بتلك الصور [ورقة ١٠٤ الف] الجسمانية على ما هي عليه بعد تصيدها[6] وهو الذي عبّر عنه بقوله يختطف ، والثاني معرفة ما يقترن بها من المعاني غير

(١) ب : من قيّم ٠ (٢) مه و س : فيتكلفهم ٠
(٣) ب : فيستحفظه ٠ (٤) مه و س : خازناً آخر ٠
(٥) غير موجود في مه و س ٠ وموضع « من التجريد » خال في ب ٠
(٦) ك : تصورها وبالهامش ، تصيدها ٠

المحسوسة (١) ، واستثباتها وهو الذي دلّ عليه بقوله ويستثبت الأخبار المنتهية منه ..... عليه القيم ، أراد بالقيم الذي يسلّم اليه المستهوي الحس المشترك ، فذكر انه يسلم اليه المستهون ومعهم الأنباء أي بحسه كما هو من غير أن يطلع على ما معهم من الأنباء أي المعاني المقترنة بها غير المحسوسة (٢) .

إنما له وعليه ... الملك ، أراد بالخازن القوة الحافظة .

فأما الأسرى فيكفلهم هذا الخازن أي ان الصور المحسوسة يتكفل بها هذه القوى الحافظة وهي التي تسمى القوة الخيالية . وأما آلاتها فيستحفظها (٣) خازن آخر أي ان المعاني المقترنة بالصور يسلم الى خازن آخر أي القوة الوهمية أولاً ثم الذاكرة .

وأراد بقوله وكما استأمروا الى آخر الفصل ما أشرنا اليه قبل من المحاكاة والتركيب والتفصيل .

(ومن هذين القرنين من يسافر الى اقليم هذا فيغشى الناس في الأنفاس حتى تخلّص الى السويداء من القلوب) .

أشار بذلك الى القوى الغضبية والشهوانية ، فانها تتأدى قوة كل واحدة منها الى النفس الإنسانية فيدعوها ويبعثها على أعمال تحصل منها في البدن . ثم ذكر كيفية وصول كل واحدة من القرنين الى النفس .

(فأما القرن الذي في صورة السباع من القرنين السيارين فانه يتربص بالانسان طروّا أدى معتباً عليه (٤) ، فيسفّره ويزيّن له سوء العمل من القتل والمثل والايحاش [ورقة ١٠٤ ب] والإيذاء فيربي الجور في النفس ويبعث على الظلم والغشم) .

أشار بهذا الفصل الى القوة الغضبية منها يستولي على النفس ويبعثها على العمل

(١) ب : الغير محسوسة . (٢) ب : الغير محسوسة .
(٣) ب : فيستحفظه .
(٤) م و س : أدى معتباً عليه . و ب : طروّ ادى معتب عليه .

الغضبي عند لحوق مكروه ومؤذٍ بها فيحركها نحو دفع ذلك عن نفسها إما بقتل أو مثل أو إيحاش وإيذاء وبالجملة بنوع ما من أنواع ما يستدفع به الشر والمكروه والمؤذي ، ثم إنها ربما تجاوزت الحد في ذلك فيبعث على الظلم والغشم أي على أن لا يعمل على الوجه الذي ينبغي وبالمقدار الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبموجب [1] القوانين الشرعية إلاّ ان تزجرها قوة العمل وتردها الى الواجب وذلك فيمن يتمكن منه العقل إما طبعاً وإما تعوّداً .

(وأما القرن الآخر منها فلا يزال يُناجي بالَ الانسان بتحسين الفحشاء من الفعل والمنكر من العمل والفجور اليه وتشويقه اليه وتحريضه عليه ، قد ركب ظهر اللجاج واعتمد على الإلحاح حتى يجرّه اليه جرّاً) .

التفسير : أشار بهذا الفصل الى القوة الشهوانية منها تستولي على النفس وتبعثها على العمل الشهواني عند لُحوق حاجة الى ملذ ومنتهى لها من مطعوم أو منكوح فيحركها الى استجلاب ذلك الى نفسها ثم إنها ربما تجاوزت الحدّ في ذلك فتبعث على ركوب الفحشاء والمنكر من الأفعال والأعمال [2] .

(يتبع) محمد المدعو بصغير حسن المعصومي

---

(١) ب : وللوجب القوانين .

(٢) والعبارة الآتية زائدة مكررة في ب : « والاعمال اي على ان لا يعمل على الوجه الذي ينبغي وللقدار الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبموجب القوانين الشرعية إلا ان تزجرها قوة العقل وتردها الى الواجب وذلك فيمن يتمكن منه العقل اما طبعاً واما تعوداً » .

تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

- ١١ -

٦ – سيد قطب :

من خير من كتب في موضوعات القرآن في هذا العصر « سيد قطب » ولم يؤلف كتاباً خاصاً في الاعجاز كما أنه لم يتكلم عليه صراحة ولكن قارئ كتابيه « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » يشعر بأنه يؤمن بالإعجاز إيماناً عميقاً ويبين بالأمثلة التي يأتي بها من القرآن سحره الفني الذي يرادف في حقيقة الأمر « إعجازه البياني » .

واعتقاده بالاعجاز يظهر صراحة في بعض مقاطع من كتابيه هذين واليكها :

١ – قال في الصفحة (١٥) من التصوير الفني (الطبعة الثانية) : فتحداهم مرة ومرة : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، « قل فأتوا بسورة مثله » ... ولكنهم لم يأتوا بعشر سور ولا بسورة مفردة ! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلاً ، إلا ما قيل من محاولة بعض المتنبئين بعد محمد ؛ وليس هذا من الجد في شيء ، ولا يجوز أن يحسب له في هذا المجال حساب . أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فلا يقام له وزن !

٢ – وقال في (ص ١٦) من المرجع نفسه عند كلامه على أثر القرآن في سامعيه : فهو التأثير الذي يلمس الوجدان، ويحرك المشاعر ويفيض الدموع . يسمعه الذين تهيأوا للإيمان ، فيسارعون اليه كالمسحورين ، ويسمعه الذين يستكبرون عن الاذعان ، فيقولون : « إن هذا إلا سحر مبين » أو يقولون :

« لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » فيقرّون بالاعجاز الغلاّب من حيث لا يشعرون ، أو يشعرون .

٣ – وقال في (ص ١٠) من « مشاهد القيامة في القرآن » : فهدفي هنا هدف فني خالص محض ، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل ، فاذا التقت في النهاية قداسة الفنّ بقداسة الدين ، فتلك نتيجة لم أقصد اليها ولم أتأثر بها . إنما هي خاصة كامنة في طبيعة هذا القرآن ، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية ، ولو لم يحسب السالك حسابها في الطريق ...

وهذه المقاطع تبين بوضوح كما ترى أنه يسعى إلى البرهان على إعجاز القرآن من حيث يتكلم على ميزته الفنية الأولى وهي التصوير فكأنه يريد أن يتحدث عن الإعجاز تحت عنوان آخر حديث .

والفن في القرآن ـ وهو كما بيّنا دعامة إعجازه عنده ـ قائم على الإبداع في العرض والجمال في التنسيق والقوة في الأداء (مشاهد القيامة في القرآن ص ٢٣٥) وهذه المميزات الثلاثة تنبعث فيه من استعمال التصوير الفني الذي هو منبع سحره (كتاب التصوير الفني ص ١٧ وما بعدها) ويرى أن منابع سحر القرآن الأخرى التي يتحدث عنها غيره من المؤلفين والعلماء ليست شيئاً بالنسبة الى هذا المنبع الذي خصّه هو بعنايته وهو التصوير الفني .

قال في (ص ١٧) من « التصوير الفني » : ينظر بعض الباحثين في القرآن الى القرآن جملة ثم يجيب ، وبعضهم بذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً أخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملاً ، من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان ، ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام ، ومن علوم كونية في خلق الكون والإنسان .

ولكن البحث في هذا النحو إنما يثبت المزية للقرآن مكتملاً فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم ، ولا تجمع بطبيعة الحال

كل المزايا المتفرقة في القرآن ؟ إن هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الأولى ، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم ولا الأغراض الكبرى هي التي تسترعي إحساسهم وتستحق منهم الإعجاب ..... الى أن يقول في (ص ٢٣) :

« وإننا لنستطيع أن ندع ـ مؤقتاً ـ قدامة القرآن الدينية ، وأغراض الدعوة الاسلامية ؛ وأن نتجاوز حدود الزمان والمكان ؛ ونتخطى الأجيال والأزمان ، لنجد بعد ذلك هذا الجمال الفني الخالص ، عنصراً مستقلاً بجوهره ، خالداً في القرآن بذاته ، يتملاه الفن في عزلة عن جميع الملابسات والأغراض .

وإن هذا الجمال ليتملى وحده فيغنى ، وينظر في تساوقه مع الأغراض الدينية فيرتفع في التقدير » .

ويقول في (ص ٣٢) : « إن لهذا الكتاب العظيم لخصائص مشتركة ، وطريقة موحدة في التعبير عن جميع الأغراض ..... هذه الطريقة الموحدة ، هذه القاعدة الكبيرة .. هي التصوير الفني في القرآن » .

ويقول في (ص ١٩٤) : « وبعض الناس حين ينظر في هذه الموضوعات ـ يقصد الموضوعات الإلهية والتشريعية ـ ويرى ما فيها من دقة وعظمة وصلاحية ومرونة ، وإحاطة وشمول ، يحسبها ميزة القرآن الكبرى ، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها ، وأن الإعجاز كله كامن فيها ، كما أن بعضهم يفرق بين المعاني وطريقة الأداء ، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منها على انفراد .

أما نحن فنريد أن نقول : إن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير ، هي التي أبرزت هذه الأغراض والموضوعات ، فهي كفاء هذه الأغراض والموضوعات » .

ويشرح سيد قطب هذه الطريقة ويبين فضلها على غيرها في (ص ١٩٦) فيقول : « لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية وإبرازها في صور حسية ، والسير على طريقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تصوير المشاهد الطبيعية ، والحوادث الماضية ، والقصص المروية ، والأمثال القصصية ، ومشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، والنماذج الإنسانية ... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخيل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة .

فما فضل هذه الطريقة على الطريقة الأخرى ، التي تنقل المعاني والحالات النفسية في صورتها الذهنية التجريدية ..... ؟ إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل اليها مجرّدة من ظلالها الجميلة . وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان وتصل الى النفس من منافذ شتى : من الحواسّ بالتخييل . ومن الحس عن طريق الحواسّ ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء . ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة الى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد .

ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة ولكننا إنما ننظر اليها هنا من الوجهة الفنية البحتة . وإن لها من هذه الوجهة لشأناً . فوظيفة الفن الأولى إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه . وكل أولئك تكفلة طريقة التصوير والتشخيص للفنّ الجميل (١) .

ويتساءل المؤلف في ص (٢٠٥) من « التصوير الفني » عن « طريقة التصوير في التعبير » هل هي القاعدة الأولى في تعبير القرآن ؟ وهو يجيب على ذلك بهذه السطور التي أوردها في مقدمة كتابه « مشاهد القيامة في القرآن » :

« هذه القضية لديّ كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن . فالقصة ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجداني في القرآن ، مضافاً اليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض

---

(١) راجع الأمثلة على ذلك في ص ١٩٧ وما بعدها وفي مواضع اخرى كثيرة من الكتاب .

الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية ... تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكمّ . وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير . فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرّد . وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن .

فليس هنالك من شطط حين أقول : « إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن » .

والى جانب هذه السمات التي تكوّن في نظر المؤلف سحر القرآن الفني المرادف في الحقيقة لإعجاز القرآن يعتقد المؤلف بأن تكرار القرآن أكثر قصصه في صور مختلفة هو ضرب من الإعجاز ويقول في ذلك (ص ٨ من مشاهد القيامة في القرآن) :

« والعجيب حقاً أن تعدّد هذه المشاهد – وأساسها واحد – لم ينشئ نوعاً من التكرار . فكل مشهد يختلف عن سابقه في كلياته أو جزئياته . وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس ، كلهم ناس ، ولكنّ لكلٍّ سحنةً وسمة ، في هذا المتحف الإلهي العجيب !!! » .

ونستنتج من هذا كله أن المؤلف لا ينكر إعجاز القرآن من حيث التشريع والإخبار عن الغيب والعلوم الكونية ولكنه يرى أن إعجاز القرآن أو سحره – في تعبير المؤلف – قائم على الإبداع في العرض والجمال في التنسيق والقوة في الأداء وهي تتمثل أو تنبعث في ثلاثة أرباع القرآن من استعماله طريقة التصوير الفني .

* * *

٧ – الأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني :

هو أحد علماء الأزهر المعاصرين وقد ألف كتاباً في إعجاز القرآن سماه «مناهل العرفان في علوم القرآن» . جاء فيها بثلاثة عشر وجهاً لإعجاز القرآن بعضها تكرار لما قاله الأقدمون وبعضها قال به الأقدمون ولكنه ضرب عليه أمثلة جديدة أو اجتهد فيه اجتهاداً أظن فيه بعض الجدة في القالب لا في الجوهر .

ومن أهم ما جاء في مقدمة هذا الكتاب أن اختيار الألفاظ في القرآن يظهر فيه وجه من الإعجاز من حيث أن أهل كل عصر يفهمونها بما يناسب تفكيرهم ويلائم ذوقهم ويوائم معارفهم ولو استبدلت تلك الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لأن يخاطب به الناس كافة .

ويلاحظ أن هذه الخاصة لا ينفرد بها القرآن بل يشاركه فيها على التحقيق كل الكتب والآثار الأدبية القديمة لأن الألفاظ كالبشر تخضع لنواميس الحياة وتنتقل من طور الى طور وتختلف مفاهيمها في الأذهان باختلاف العصور والبيئات .

ومن أهم ما جاء في مقدمته لوجوه الإعجاز في القرآن الأمور الأربعة التالية :

١ – النغمة الصوتية فسامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل لأنه ينتقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة وقد سبقه الى القول بها الباقلاني والجاحظ والرافعي وغيرهم .

٢ – إرضاء القرآن للخاصة والعامة وللمؤلف فضل التوسع في هذه النقطة وإيضاحها .

٣ – إرضاؤه العقل والعاطفة ويستمد المؤلف هذه النقطة من عناصر البلاغة كما يفهمها الأدباء المعاصرون .

٤ً — جمع القرآن بين الإجمال والبيان فالجملة فيه واضحة مع احتمالها عدة معانٍ أخر أي إن الجمل فيه موحية بكثير من المعاني .

وبلاحظ أن القرآن لا ينفرد بهذه الخواص بل يشاركه فيها الآثار الأدبية الموفقة . ولعلّ المؤلف يريد أنها لا تساويه درجة في هذه الخواص التي فاز منها بالسهم الأعلى .

ومن أهم وجوه الإعجاز التي ذكرها المؤلف ما يلي :

١ً — لا يستطاع مجاراة القرآن في ترتيبه وانسجامه وترابطه فالانسجام في السور التي نزلت آياتها متفرّقة هو الانسجام نفسه في السور التي نزلت آياتها دفعة واحدة .

٢ً — هدايات القرآن وعلومه مع أُمية النبي . وهنا يقارن المؤلف بين الإسلام والمسيحية واليهودية في عقيدة الإيمان بالله وفي عقيدة البعث والجزاء . وهنا يتكلم على وفاء القرآن بحاجات البشر .

٣ — موقف القرآن من العلوم الكونية . والمؤلف لا يريد أن يجعل استنباط العلوم الكونية من القرآن دليل إعجازه لأن هذه العلوم تتغير نظرياتها باستمرار . ولكنه يعتقد أن هذه العلوم إذا استقرّت وثبتت حقائقها أمكن حينئذ أن تستنبط من القرآن أو تطبّق عليه . وهو يرى أن عدم تعرّض القرآن لنظرياتها دليل إعجازه . وهنا نرى أنه يثبت النظرية العلمية في الإعجاز من حيث يريد إنكارها .

٤ً — سياسته في الإصلاح وهي تتمثّل بالتدرج في التشريع وحسن الدعوة الى الإسلام بالموعظة الحسنة .

٥ً — أنباء الغيب في القرآن . ومنها أمور تتعلّق بالاجتماع كقوله تعالى : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .

٦ – تأثير القرآن في نفوس أعدائه وأتباعه ونجاحه .

ويأتي المؤلف بشبهات يوردها المناهضون لإعجاز القرآن على الأسلوب وغير الأسلوب وينقضها واحدة واحدة .

* * *

جدول بأسماء المتكلمين الذين لم أطلع على آرائهم في الإعجاز وبأسماء كتبهم التي ألفوها في هذا البحث ولم أظفر بها لأطالعها وقد اقتبسته عن مقالة الأستاذ عبد العليم الهندي السابقة :

عبد الواحد بن اسماعيل الروياني توفي سنة ٥٠٢ هـ [١] .

ابن بيجوك البقالي توفي سنة ٥٦٢ هـ [٢] .

قاسم بن فرُّوه [٣] توفي سنة ٥٩٠ هـ [٤] .

ناصر بن عبد السيد المطرّزي توفي سنة ٦١٠ هـ [٥] .

ابن كمال باشا توفي سنة ٩٤٠ هـ [٦] .

ابراهيم بن أحمد الجزري ؟ [٧]

محسن بن حسين النيسابوري الخوزني ؟ [٨] .

* * *

(١) انظر حاجي خليفة تحت اسم إعجاز وليس لهذا الكتاب أثر .

(٢) انظر فهرس الكتب العربية MSS برلين المجلد الأول ص ٢٨٨ – ٢٨٩ برلين MS. Spr. 819

(٣) لفظ هذا الاسم معمى . في المعارف هو فيره ويمكن أن يكون محرّفاً . وفي الارشاد المجلد الرابع ص ١٨٤ هوفيره وبروكلمان يقراه فرُّوه المجلد ص ٤٠٩ ويذكر أنه يمكن ان يكون اسماً اسبانياً قديماً

(٤) و (٥) انظر المعارف المجلد ١٨ عدد سنة ١٩٢٦ ص ٣٣١ والاثنان موجودان في خزانة المدينة .

(٦) و (٧) انظر فهرس خزانة برلين MSS المجلد ص ٢٨٨ – ٢٨٩ فقط ٨ غير موجود MS برلين Spr سنة ٨١٩ .

(٨) انظر كشف الحجب عن اسماء الكتب كلكوتا ١٩١٢ ص ٥٢ وهو مفقود .

جدول بأسماء مؤلفين جعلوا هذا البحث جزءاً من كتبهم التي وصلت الينا ولم أتحدث عنهم :

١ — عبد القاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩ ﻫ) في كتابه أصول الدين المنشور في استامبول سنة ١٩٢٨ م ٠

٢ — علي بن محمد الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ في كتابه أعلام النبوة المنشور في القاهرة سنة ١٣١٥ ﻫ ٠

٣ — عبد الملك بن عبد الله الجويني (أبو المعالي إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٨٨ ﻫ) في كتاب الإرشاد في أصول الاعتقاد (ليدن) ٠

٤ — محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨ ﻫ) في كتاب نهاية الإقدام في علم الكلام (اكسفورد) ٠

٥ — تقي الدين بن تيمية (٧٢٨ ﻫ) في كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ط القاهرة ١٣٢٣ ﻫ) ٠

٦ — هبة الله البارزي (٧٣٨ ﻫ) في كتاب توثيق عرى الأديان في تفضيل حبيب الرحمان (مخطوط في برلين) ٠

٧ — بدر الدين بن عمر بن حبيب (٧٧٩ ﻫ) في كتاب النجم الثاقب في أشرف المناقب (MS. Berlin Pet. 342)

٨ — سعد الدين التفتازاني (٧٩١ ﻫ) في كتاب شرح مقاصد الطالبين في أصول الدين (طبع استامبول سنة ١٢٧٧ ﻫ) ٠

٩ — الشريف الجرجاني (٨١٦ ﻫ) في كتاب شرح المواقف (تأليف الأيجي المتوفى سنة ٧٥٦ ﻫ) طبع ليبزيغ ١٨٤٨ مخطوط في برلين ٠

١٠ — أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (القطب) في كتاب الخرائج والجوارح (مخطوط برلين) ٠ وقد أدخل هذا الكتاب محمد باقر المجلسي المتوفى سنة ١٠١١ ﻫ في كتابه (المعلمة) المسمى بحار الأنوار المطبوع في طهران

سنة ١٣٠٣ هـ — ١٣١٥ هـ . (راجع فيما يتعلق بمحمد باقر المجلسي معجم الكتب العربية المطبوعة والمعرَّبة لسركيس) .

وقد وجدت في كتاب أعلام الشيعة للعاملي (مؤلف حديث) ترجمة قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي فقال إنه تلميذ صاحب مجمع البيان وذكر أن له خلاصة التفاسير في عشرة مجلدات وتفسير القرآن في مجلدين وذكر أنه عاش في المائة السادسة ولكنه لم يذكر أن له كتاب الخرائج والجوارح .

١١ — يحيى بن حسن القرشي الزبدي في كتاب منهاج التحقيق ومحاسن التلفيق (MS. Berlin G ls. 96) .

١٦ — رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) المنشور في القاهرة ١٣٠٩ هـ

* * *

خاتمة

ذكرت رأيي في إعجاز القرآن وأفضت فيما ثار من النزاع بين العرب في حياة النبي فليرجع اليه هناك من شاء . ولا أرى الآن بدًّا من القول بأن فكرة الاعجاز عقيدة دينية مثل غيرها من العقائد التي لا يمكن أن يؤيدها برهان عقلي أو حسي حاسم يكون له قوة البرهان الرياضي فيقنع الخصم المعاند ، وأنها قائمة على القناعة الوجدانية فالحجة التي تقنع المناصر قد لا تقنع المنكر ، بل قد تزيده إنكاراً . والمؤمن بفكرة الإعجاز يرى أن عجز العرب عن معارضة القرآن دليل على إعجازه وعلى رسالة الرسول على حين يرى من لا يؤمن بها أن عجزهم حينئذ دليل على أن النبي خيرهم بياناً وليس دليلاً على أنه رسول الله وعلى أن القرآن كلام الله ، وذلك كما لو عجز الناس عن معارضة امرئ القيس من شعراء العرب أو شكسبير من أدباء الانكليز فإن عجزهم لا يجعل من أحدهما رسولاً . ولا شك في أن تذوق جمال القرآن الأدبي يختلف من شخص الى آخر باختلاف

عقيدته وذوقه الفني الأدبي ومنشئه وميله . وليس من الممكن أن يتذوق الملحد ومن لا يرى القرآن منزلاً من عند الله حلاوة القرآن كما يتذوقها من يراه دستور الانسانية الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ونرى أن فكرة الإعجاز ، شأن كل فكرة علمية أو أدبية ، تساير روح العصر الذي تعيش فيه فيظهر فيها التجديد والقوة حيث تكون نهضة متوثبة ويظهر فيها الجمود واجترار ما قاله المتقدمون حيث يهيمن الخمود والموت الاجتماعي . ويبدو التناقض لدى القائلين بها حيث يخيم ظلام الجهل وضعف التفكير ويناهضها الإنكار أو معارضة القرآن حيث يحصل تصادم واحتكاك قوي بين الثقافات والديانات واللغات والشعوب فيثور من جراء ذلك كله نقاش شديد في المسائل الاجتماعية والدينية والأدبية يشتد فيه إنكار المنكرين كما اشتدت فيه مناصرة المؤيدين لتتوازن قوى المجتمع بنتيجة ذلك التوازن الطبيعي .

وقد انتهيت من دراسة أفكار من تكلموا في الإعجاز إلى أن فكرة الإعجاز ببلاغته كانت أقوى هذه الأفكار . ولكنَّ القدماء الذين أرادوا أن يثبتوها لم يكن عندهم آراء ونظرات فنية كاملة في فنون البلاغة التي كانت في زمنهم قاصرة إذا قسناها بفنون البلاغة الحديثة كما يدركها الغربيون وكما يجب أن تكون عندنا اليوم فلم يستطيعوا أن يبلغوا شأو بعض المحدثين كالأستاذ الخولي الذي يقول بالإعجاز النفسي ، والأستاذ سيد قطب الذي يقول بسحر القرآن بفضل التصوير الفني الرائع الذي فيه ويأتي على ذلك بالأمثلة .

وإن كان لا بد من خاتمة لهذا البحث فهي أن هذه المسألة الفرعية من علم الكلام كانت ولا تزال مرآة للحركة الفكرية عند العرب والمسلمين منذ بعثة النبي الى الآن وستبقى كذلك مرآةً وميداناً للأخذ والرد والجدل ما بقيت الأرض .

* * *

المراجع

إعجاز القرآن للرافعي .

إعجاز القرآن للباقلاني .

تفسير الطبري .

مقدمة حسن الصنيع .

مقدمة التلخيص للقزويني .

دلائل الاعجاز للجرجاني .

كتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي اليمني .

نهاية الايجاز في دراية الاعجاز لفخر الدين الرازي .

التفسير الكبير : مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي .

مفتاح العلوم للسكاكي .

الفصل في الملل والنحل لابن حزم الأندلسي .

رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : الأستاذ أمين الخولي .

التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم : الأستاذ أمين الخولي .

البلاغة وعلم النفس في مجلة كلية الآداب المجلد الرابع الجزء الثاني سنة ١٩٣٦ : الخولي .

ترتيب نصوص آي الذكر الحكيم في أبواب الدين القويم : وضع سلامة محمد .

تفسير الكشاف للزمخشري .

الاتقان في علوم القرآن للسيوطي .

مفردات الراغب ومختار الصحاح والقاموس المحيط .

تفسير الألوسي .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .

كشف الظنون لحاجي خليفة .

مقالة للأستاذ كراوس ، مجلة الأديب ص ٣٢ سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤ .

الملل والنحل للشهرستاني .

مقدمة ابن خلدون .

كتاب الحيوان للجاحظ .

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .

«مقالة في الاعجاز لعبد العليم الهندي في مجلة الثقافة الاسلامية التي تصدر في الهند باللغة الانكليزية العدد ١ و ٢ من سنة ١٩٣٢ .

The Islamic culture N.1 and 2. 32 th year: Concluded Abdul Aleem Hindi. »

التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .

مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نعيم الحمصي

التعريف والنقد

المصطلحات العلمية في اللغة العربية

في القديم والحديث

كتاب يقع في ١٣٥ صفحة ، وهو مجموعة سلسلة من المحاضرات ألقاها زميلنا العلامة الأمير مصطفى الشهابي في القاهرة على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية ، بدعوة من مدير المعهد الأستاذ العالم السيد ساطع الحصري .

موضوع شائك لا يستطيع الجولان فيه إلا من وقف نفسه على التقصي ، وبحث جليل تفتقر اليه لغة الضاد أشدّ الافتقار ، فلا عجب اذا ما انتدب له بحاثة كبير كالأمير مصطفى الذي عانى أمر المصطلحات العلمية زهاء ثلث قرن ، فوضع وحقق في خلال هذه السنوات الطوال ألوف المصطلحات في علوم الزراعة والمواليد ولا سيما النبات ، ونفع اللغة العربية أخيراً بثمرة عمله الرائع فطبع في السنة ١٩٤٣ « معجم الألفاظ الزراعية » الذي سدّ ثغرة كبيرة في باب المصطلحات العلمية . وقد كنا نتمنى لو حذا حذوه الاختصاصيون في مختلف العلوم ، فوضعوا أو حققوا مصطلحات اختصاصاتهم ، وأخرجوا اللغة العربية من هذا المأزق الذي تعانيه . ولست أظن أن شعباً متطلباً للاستقلال والتحرر يستطيع بلوغ هذه الأمنية إذا لم يحرر لغته من ربقة اللغات الأجنبية ، ولا أغالي اذا قلت ان كل شعب مستقل ، ولغته لا تزال عاجزة عن السير في مضمار العلم ، يعدّ شعباً مستعبداً ، لأن اللغة بعلومها ، والأمة بلغتها ، فهي شعار القومية ودليل الاستقلال الفكري .

وفي البلاد العربية اليوم نهضة مباركة نتمنى لها النجاح ، ونرجو أن تفضي

أعمالها الى وضع معجم جامع للعلوم تقره المجامع العلمية في البلاد العربيــة ، فتتوحد المصطلحات ، وبقطع علماؤنا هــذه المرحلة الأولى ، مبتدئين بمرحلتهم الثانية ، وهي البحث والتقصي والاكتشاف .

إن من يتصفح هذا الكتاب يدرك العناء الكبير الذي كابده المحاضر في جمع هذه المعلومات المائعة التي ضمنها محاضراته ، فهو لم يترك ناحية إلا طرقها ، فبعد أن بحث في اللغة العربية ونشأتها تكلم عن وسائل نمو اللغة : عن الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب . ثم ماشى اللغة العربية منذ القديم حتى عصرنا الحاضر ، متنقلاً معها في الجاهلية وأيام الراشدين والأمويين والعباسيين ، مبيناً عيوب المعجمات العربية القديمة التي لم تعد صالحةً لمماشاة العلوم الحديثة ، وانتقل بعد ذلك الى النهضة الحديثة في نقل العلوم فجاء على النهضة المصرية ، فعلى النهضة الشامية ، ولم يهمل جهد الأفراد في وضع المصطلحات العلمية ، ولا عمل المجامع العلمية في البلاد العربية : المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية في مصر والمجمع العلمي العراقي ، وقد خص الجامعة السورية بكلمة طيبة . وأسهب في أعمال مجمع مصر . ولم يكتف بذكر تلك الجهود التي قام بها الأفراد والجماعات بل ذكر آراءه في نقل الألفاظ العلمية الى اللغة العربية فكانت آراءً سديدة دالةً على ما اتصف به المؤلف من سعة التفكير وعمق التقصي ، وأخص منها رأيه في شروط النقل وتوحيد المصطلحات العلمية ، والوسائل المؤدية الى هذه الغاية .

والخلاصة ان محاسن هذا الكتاب على صغره لا تعدُّ ، وان الالمام بها في كلمة مقتضبة كهذه أمر متعذر ، فعلى كل عالم ولغوي أن يطالع هذه الأبحاث ، ويعي ما جاء فيها من النصائح والارشادات والآراء ، ولا سيما من كانت مهمته وضع المصطلحات العلمية أو تحقيقها .

إنني أكبر عمل رصيفنا العلامة الأمير مصطفى ، وأسدي اليه باسم اللغة التي أضنى جسده في خدمتها أجزل الشكر على هذه التحفة الثمينة .

الدكتور مرشد خاطر

القرآن المجيد

لو قال لي قائل : دلني على تفسير للقرآن بالقرآن ، بحيث تكون آياته في الموضوع الواحد مجموعة في مكان واحد ، ومفسَّرة تفسيراً يجمع بين معانيها جمعاً محكماً ، لقلت إنك تجد هذا في تفسير الأستاذ المستقلّ (عزة دروزة)؛ فقد رتّب كتابه الذي وصَفَ فيه (القرآن المجيد) هذا الترتيب ، وأقامه على أربعة فصول ، فالفصل الأول في القرآن ـ أسلوبه ووحيه وأثره ، والثاني في جمعه وتدوينه وقراءاته ورسم المصحف ، والثالث في الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره ، والرابع نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم ، وتحت كل فصل من هذه الفصول الأربعة عناوين لمسائله المتنوّعة ، ثم ختمه ببيان أفضل المناهج لتفسير القرآن . وهذا المؤلَّف الذي بلغ ثلاثمائة صفحة قد جعله مقدمة لتفسيره الكبير الذي يقع في عِدّة مجلدات ، كما أشار اليه في أولها . ومن أمعن النظر في هذه الفصول رأى فيها فوائد جمة ، ومباحث مهمة ، كأسلوب القرآن والسيرة النبوية ، وشهود العيان لأعلام النبوة ، وأثر القرآن الروحي وبلاغته اللفظية ، وأثر الدعوة القرآنية في نجاح الفتوحات الاسلامية ، (وردٌ هنا على الأستاذين فيليب حتي وكايتاني في دعوى أن انتصار الجيوش العربية كان انتصاراً للعروبة ، لا للدعوة الاسلامية ، ردًّا معززاً بالشواهد الكثيرة) ، والقرآن والعرب في عهد النبي ، ومن مباحث الفصل الثاني ، ترجيح تدوين القرآن وترتيبه في عهد النبي (ﷺ) ومرجحات ذلك ، كتابة ترتيب النزول وعدد الآيات ، رسم المصحف العثماني ، والقراءات ، ومن الثالث : القرآن والسيرة النبوية ، لغة القرآن ، القصص القرآنية ، الملائكة والجن في القرآن ، مشاهد الكون ونواميسه في القرآن ، تسلسل الفصول القرآنية وسياقها ، فهم القرآن من القرآن . وفي الفصل الأخير نظرات المفسِّر الثاقبة ، ونقده بالمنقول

والمعقول لبعض مروياتهم في أسباب النزول ، والتفسير ، وتعليقات المفسرين على القصص ومشاهد الكون والملائكة والجن ، والتعصب للمذاهب في سياق التفسير ، والولع باستنباط الرموز والمصطلحات ، والتفريع والاستطراد ، ونقد روايات نزول القرآن جملة واحدة ، والقول بنزوله بالمعنى ، وفتنة القول بخلق القرآن .

وطريقته في هذه المقدمة أن يتوج مباحثه بما يناسبها من الآيات الكريمة ، بعد أن يمهد بالدخول عليها بما يبعث في النفس شوقاً الى تلاوتها ، ثم يفسر الآية أو الآيات بالظاهر المتبادر منها ، مشيراً الى أرقامها وسورها ، مستعيناً بالمعقول والمنقول من أسباب النزول ، وبالزمان والمكان اللذين أنزلت فيهما الآيات ، وبعصر النبوة في حوادثه ووقائعه ، وبيئة الرسول قبل البعثة ؛ ويفسر القرآن بالقرآن ، ثم بما يتصل به من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام . فمنهجه في هذا كله سلفي وإن كتب بلغة حديثة ، واستمد من نوى العصر ومعارفه وهو يرى أن السعادة لا تعود لهذه الأمة إلا اذا عادت الى القرآن علماً وعملاً ، وأدباً وخُلقاً ، ففيه « أقوى الحوافز الى أسمى الآفاق ، وأبعد الأشواط الموصلة الى أعلى ما يمكن أن يكون من رفعة الذكر ، وعلو القدر ، وقوة التمكين والنصر ، وجعلت متبعيه خير أمة أخرجت للناس إذا هم قاموا بأعباء ما حملهم إياه من تبعات ، وأدّوا ما ائتمنوا عليه فيه للانسانية من أمانات » . وقد تكلم على كتب التفسير ، وما فيها من زيادات أو تقصير ، كما ردّ على كتب التبشير والتنصير بردود محكمة ملزمة . وختم الكتاب بإيراد عشرة وجوه يحتاج اليها المفسّر ليكون تفسيره وافياً بالمطلوب .

وإني موضح هنا ما جاء في أواخر هذا الكتاب من القول بترجمة القرآن الكريم ، قال المؤلف (ص ٢٩٤) : « وننبه على أننا لسنا هنا في معرض منع ترجمة القرآن وعدم جوازه ، بل إننا نرى هذا مفيداً جداً ، وواجباً لازماً ، في سبيل نشر الدعوة الإسلامية القرآنية العظمى » .

وأقول هذا حق ، ولكن المعقول أن يترجم ترجمة تفسيرية لآيه وسوره ، وأن تبلغ دعوة الاسلام الى كل أمة بلغتها ، فاذا أشربتها قلوبهم تعلم عامتهم بالعربيه ما تصح به عبادتهم ، وتدرس الخاصة القرآن والعلوم الدينية ، والفنون العربية والأدبية بلغة العرب ليتذوقوا إيجازه وإعجازه ، وحقيقته ومجازه . أما الترجمة الحرفية فهي متعذرة في كثير من كلماته ، لا سيما أسماء الله تعالى وصفاته ؛ وقد انتشرت العربية - تبعاً للاسلام - في قارات الأرض الثلاث (آسية وافريقية واوربا) ودخلت أمم كثيرة في العروبة والاسلام ، فهل كانت تلاوة القرآن ودراسته بلغته إلا هدى ورحمة ، وإحساناً وتوفيقاً « تآخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض وضياءها ونوراً لأهلها » .

وقد كانوا في الصدر الأول إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، وهذه هي الطريقة المثمرة التي تجدد لنا عهداً بطريقة سلفنا الذين استخلفهم الله في الأرض ، ومكن لهم فيها ، وأورثهم علوم الامم وحضاراتهم ، فنوجه أنظار المعاهد التي تعنى بدراسة القرآن وتدريسه الى هذا المنهج السلفي الذي يطبع الدارسين بطابع اللغة والاسلام والفضيلة . وقد زرنا مدارس الاستشراق في بلاد السوفيت ، وسمعنا كلام الدارسين والدارسات للغتنا العربية ، وفي لينغراد (عاصمة الروس القديمة) يدرسون القرآن الكريم بلغته ، وفي المعرض الزراعي بموسكو ظلت فتاة مستعربة تكلمنا باللغة الفصحى نحو ساعتين ، وقالت : وفد علينا أناس من بلاد العرب لم نفهم لهجتهم العامية ، ولم يستطيعوا أن يكلمونا بلغة القرآن ! ؟

فنحن إذا دعونا الى لغة القرآن والدين ، والى مثل هذا التفسير السلفي العصري فقد دعونا الى نهضة قيمة ، وحياة طيبة ، وعز تالد ، ومجد خالد ، ونسأله تعالى أن ييسر للمؤلف الكريم طبع تفسيره ليعم نفعه .

هذا وقد وقعت أغلاط ، لم يخل من مثلها كتاب ، ولم تثبت في جدول

الخطأ والصواب ، وأقتصر على كلمات الذكر الحكيم منها لتصحح ، وغيرها يسير جداً :

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
وصدق عنها	« وصدف »	٨	٦
كبيرا	« كثيرا »	٩	٢
انّ هذا كتابنا	« هذا »	٧٨	٨
وهذا	« هذا »	١٥٢	٤
وان هذا	« إنْ هذا »	١٥٢	٤
وانما يسرناه	« فانما »	١٥٢	٧
وانما أنزلنا الكتاب	« انا أنزلنا عليك »	١٥٢	١٠
وان هذا	« إن هذا »	١٥٣	١
وقد سمعنا	« قد سمعنا »	١٥٣	١
قالوا أساطير	« وقالوا »	١٥٧	١
ينظرون نظر	« ينظرون اليك »	١٦٣	١٠
واذا خلوا الى بعضهم	« واذا خلا بعضهم الى بعض »	١٧٠	١
ثم يقولون	« ثم يتولون »	١٧٠	١١
لا يحيطون بشيءٌ	« ولا يحيطون »	١٩٧	٢٢
إنْ امهاتهم اللائي	« إلاّ اللائي »	٢٠١	١٧
وبئس المصير	« فبئس المصير »	٢٠٢	١٠
بالصدقات	« في الصدقات »	٢٠٣	١٠
دابّة الأرض	« دابة من الأرض »	٢٦٥	٣
عبسى	« عَبَس »	٢٨٥	٤

محمد بهجة البيطار

مي زيادة

مع رائدات النهضة النسائية الحديثة

وهي محاضرات في ٢١٤ صفحة ألقاها العلاّمة الدكتور منصور فهمي، على طلبة قسم الدراسات الأدبية، في معهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية .

والمعهد المذكور أنشئ في القاهرة، في السنة الدراسية ١٩٥٣ — ١٩٥٤، وعهد الى العلامة ساطع الحصري بإدارة شؤونه، فسنّ سنةً حسنة تقضي بدعوة علمائنا وأدبائنا الى إلقاء محاضرات مسهبة في شتى المواضيع المتصلة بفروع التدريس، علاوةً على الدروس الأصلية التي يدرّسها الأساتذة في تلك الفروع . وبينما يكون المحاضر مكباً على إلقاء محاضراته، تكون المطبعة منهمكة في طبعها؛ وهكذا استطاع الأستاذ الحصري أن يتحف الثقافة العربية بأكثر من خمسة وعشرين كتاباً نفيساً في سنة مدرسية واحدة أو سنتين .

وكتاب «مي زيادة» هو ثمرة يانعة من هذه الثمرات، فمؤلفه معروف في البلاد العربية بأنه علم من أعلام الفكر والأدب في عصرنا الحاضر . وقد كانت له صلات وثيقة بالآنسة مي رحمها الله، فلا عجب إذن أن يصور حياتها أصدق تصوير، وأن يحلل أدبها أدق تحليل، بقلم طيع، وبيان مشرق، وآراء في الأدب والاجتماع بعيدة الغور، لا يبلغ دقائقها إلا عالم نفساني عميق التفكير .

بدأ المحاضر الفاضل كلامه على رائدات النهضة النسائية الحديثة، وهن عائشة التيمورية ووردة اليازجي وملك حفني ناصف «باحثة البادية»، فاستغرق حديثه هذا نحو نصف المحاضرات، وانتقل بعد ذلك الى التحدث عن مي الأديبة والكاتبة المفكرة، فأوضح رأيها ورأيه في تعريف الأدب، ثم وصف هيكلها

المادي على ما بقي من صورتها في مخيلته ، وذكر شيئاً عن نشأتها وبيئتها ودراستها وصفاتها النفسية ، وعقّب بالتكلم على ثقافتها وأسلوبها في التفكير والكتابة ، وفلسفتها في الحياة ، ونظرتها الى الأدب والشؤون الاجتماعية ، ولا سيما رأيها في قضية المرأة . وانتهى الى البحث في تأثيرها الأدبي والاجتماعي والسياسي ، وفي نهايتها الأليمة عقب ما انتابها من محن وشجون .

وقد دلّ المؤلف على كل ذلك بجمل كثيرة نقلها من رسائل مي ومقالاتها وكتبها وأقوال الأدباء فيها وفي أدبها .

وبعد إن كتاباً يؤلفه مثل هذا الفيلسوف والأديب الكبير ، ويتحدث فيه عن مثل النابغة مي لا يمكن إلا أن يكون قطعة من الأدب الرفيع الماتع .

الشهابي

علم السموم

تأليف الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي

زميلنا الأستاذ الكواكبي من المؤلفين المكثرين والمجيدين معاً ، امتازت كتبه المطبوعة العديدة بجزالة الأسلوب وباللغة الفصيحة الصحيحة ، ناهيك بدقة البحث وصحة الرأي مما يجعلها حجة يرجع اليها ويعتمد عليها .

وآخر ما أتحف به المكتبة العربية هو علم السموم ، وقد أنافت صفحاته على الخمسمائة ، طبع في مطبعة الجامعة السورية على ورق جيد ضمّنه الرواسم العديدة والجداول الكثيرة مما هوّن استساغة بحوثه العويصة وسهل هضمها واستمراءها . وصنّفه المؤلف لطلاب فرع الصيدلة في كلية الطب .

ولقد تصدى في مؤلفه القيم هذا ، الى البحث في منشأ السموم وأوصافها وخواصها ، وما أثر منها في البدن تأثيراً سيئاً وأعراض التسمم بها . وغايته

كما جاء في تعريف المؤلف هي إغاثة المسمومين بإعطاء ما يضاد السم ، وتحري السم في المفرغات والأحشاء بالطرق الفيزيائية والكيمياوية والغرائزية ، كما انه يعنى بالصحة العامة لوقاية العمال المشتغلين بمختلف الصناعات التي قد ينتج عنها تسمم حاد أو بطيء ، وبوقاية السكان من الغازات والأبخرة السامة المنطلقة الى الجو من المعامل ، وما الى ذلك من الغايات النبيلة التي ألمح اليها الزميل الفاضل في مقدمة كتابه . ثم عدّد طرق دخول السموم البدن وامتصاصها ونمط تأثيرها وفعل السموم في الأعضاء المختلفة وتوزع السموم في البدن الحي وتوضعها (استقرارها) والاستحالات التي تطرأ على البدن من السموم ، وإطراح السموم والبادزهرات والاسعاف وخطة العمل في حوادث التسمم والكشف الكيمياوي الشرعي وفحص الأحشاء وتصنيف السموم على اختلاف أنواعها ، وما شاكل ذلك من الموضوعات القيمة التي لا غنى للطالب عن دراستها والاحاطة بدخائلها .

والأستاذ الكواكبي يميل في تصانيفه ميلاً شديداً الى النحت والاشتقاق في نقل المصطلحات العلمية الافرنجية الى العربية ، وعلى ذلك فقد أكثر في كتابه الذي نحن في صدده من أمثال الكريراوات عن الكريات الحمر والكريضات عن الكريات البيض وتبترج الدم عن الآزوتميا (وهي كلمة عالمية شائعة في جميع اللغات) والبلسمة عن إزالة الانسمام والتفحمن عن الانسمام بأوكسيد الكربون (ولا أقول الفحم) ، والأشعة مافوسجية عن الأشعة ما فوق البنفسجي (بالنسبة الى الطيف) ومُقيهل عن المقيئ والمسهل والجزقئ عن الجوز المقيئ والسملاحين عن السم الآحيني ، والبادزهرات (أو الفادزهرات لأن العادة في تعريب الكلمات الفارسية أن تبدل الباء بالفاء) عن مضادات السموم أو الترياق الذي استعمله الأطباء الأقدمون ، وما الى ذلك من الكلمات العديدة التي تجيز استعمالها زميلنا الفاضل والتي لا غبار عليها من حيث الأساس والصياغة . وعندي أن

لا عيب فيها سوى صعوبة استيساغها · وإني مع إعجابي الشديد بمجهود الصديق وغيرته على لغة الضاد وجده في نحت أمثال تلك الكلمات الجديدة وتوليدها آمل أن تكتب لها الحياة والبقاء · وأرى أن في إدخالها الآن في الوقت الحاضر في صلب لغتنا العلمية تعقيداً لا مبرر له ، وما كانت لغة العلم لتستساغ إلا عند بساطتها وسهولة فهمها · وأهل العلوم العصرية في أيامنا هذه لا غنى لهم عن إتقان احدى اللغات الأجنبية إن لم أقل أكثر من لغتين منها ، حتى تتاح لهم مماشاة ركب الحضارة السائر سير الطائرات والصواريخ ·

أو ليس في إيجاد كلمات من طراز ما تقدم إبعاد الشقة بيننا (وفي دمشق وحدها) وبين أبناء جلدتنا الذين تضمهم بقاع فسيحة جداً من هذه المسكونة ولما تتفق كلمة المجامع العلمية واللغوية على توحيد مصطلحات العلم والنهج الذي ينبغي سلوكه في الترجمة والتعريب ؟ أولا يحتاج القارئ لمقال علمي تضمن الغريب من المصطلحات (ولا أخفي وأنا واحد منهم) الى إمعان الفكر وقدح الذاكرة عله يهتدي الى اشتقاق تلك الكلمات ، ويتوصل الى معرفة مدلولها بما وعيه من لغة أخرى ؟ أو ليس في هذا مضيعة للوقت وتعسير لسبيل العلم ؟ أفلا يفضل أن نترجم المصطلح الأفرنجي بكلمتين أو ثلاث من الكلمات الشائعة عوضاً عن الكلمة الواحدة العويصة ؟

وبعد هذه الملاحظة العابرة ، ليسمح لي الزميل الكريم أن ألفت نظره الى بعض المصطلحات الطبية (لا الكيمياوية) التي خالف فيها ما أجمع عليه الأطباء كقوله الحُمَيْرة عن القرمزية (Scarlatine) والحُميرة عند أهل الشام هي الحصبة (Rougeole) ، وعربت (Scarlatine) بالحمى القرمزية ويقال القرمزية تخفيفاً ، واشقرار الكبد عوضاً عن كهبة الكبد أو التكهب وفي الأفرنجية (Cirrhose) وهي تعني تحول الكبد الى لون أحمر ضارب الى الصفرة ، وقد جاء في فقه اللغة : الكهبة صفرة تضرب الى الحمرة (وقد نبه الى ذلك الدكتور مرشد خاطر)

مع أني أفضل كلمة التشمع التي ذاع استعمالها خطأ وانتقلت الينا مما ترجمه الأتراك، حتى أصبحت في نطاق الخطأ المشهور. وترجم كلمة (Opisthotonos) بالكزاز الظهري عوضاً عن التقوس الخلفي (لا انحناء عضلات الظهر كما جاء في موضع آخر) إذ الأفضل تخصيص كلمة الكزاز لـ (Tétanos)، وتقبض الفكين عوضاً عن الفرزز (Trismus) وقد أصبحت من الكلمات الدارجة، وانقطاع التنفّس عن كتم النفس (Suffocation) وهو نوع من الاختناق، بينما انقطاع التنفّس أو توقف النفس يقابل (Apnée)، وحركة العين حركات غير إرادية اصطلحنا عليها بالرأرأة (Nystagmus) وقد جاء في المخصص رأرأت العين اذا كانت لا تستقر من الإدارة. وقد قال التهاب المنضمة والأصح التهاب الملتحمة، وتفلج المثانة عوضاً عن شلل المثانة وفُلج الرجل أصابه داء الفالج وهو داء يحدث في أحد شقي البدن طولاً فتبطل حركته، وكذلك قوله الفلج التنفسي البصلي والأصح شلل التنفس البصلي، والنضوج عوضاً عن النضج، وأبحاث عوضاً عن بحوث.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد أحسن المؤلف صنعاً في إشارته في خلال بحوثه الى مصادر الاستزادة للمستزيد وإكثاره من التطبيقات العملية بالإضافة الى فهارسه العديدة التي منها ما هو مرتّب على حروف المعجم ومنها ما هو مصنّف بحسب البحوث والفصول ثم المنهاج المدرسي والجداول والتطبيقات العملية والروامم مما يهوّن السبيل للطالب والممارس.

وختاماً لا يسعني إلا إكبار نشاط الأستاذ الزميل وإطراء مجهوده العلمي وفقه الله.

الدكتور حسني سبح

تاريخ العراق بين احتلالين

(المجلد الخامس) تأليف الأستاذ عباس العزاوي

طبع في بغداد سنة ١٩٥٣ في (٣٥٥) صفحة من قطع الوسط

وعد الأستاذ العزاوي في المجلد الأول من هذا التاريخ عام ١٩٣٥ قراءه أن يقدم لهم سلسلة أبحاث عن تاريخ العراق بين الاحتلالين المغولي والبريطاني. وكان من حين للآخر يتحفنا بجزء منه حتى بلغ عدد ما صدر منه خمسة مجلدات. وهذا الجزء كسابقاته طافح بالوثائق والأخبار. جمع فيه المؤلف أهم حوادث العراق السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية خلال السنين (١٠٤٩ الى ١١٦٣ هـ) من الحكم العثماني. وقد استقى أخبارها من أوثق المصادر العربية والأعجمية المعاصرة منها: (منظومة آل فراسياب) و (زاد المسافر) و (تاريخ الغرابي) و (گلشن خلفا) و (قويم الفرج بعد الشدة) و (تاريخ چلبي زاده) وغيرها من السجلات العثمانية الرسمية. وقد سرد حوادث هذه المدة بحسب سني وقوعها وعلق على بعضها.

ويجد الباحث عن تاريخ العراق في هذه المجموعة مادة غزيرة لموضوعه وصورة صادقة لحالة العراق في ذاك العهد من الحكم العثماني. ولا يختلف حال العراق عن وضع بقية الأقطار العربية الخاضعة يومئذ لسلطان آل عثمان. كان مثلها يشكو الفوضى وعدم الاستقرار ويئن من وطئة جور الولاة وجشعهم في جمع الأموال ومصادرتها، يضاف الى كل ذلك طغيان الينكجرية الذين استباحوا الأموال واستحلوا الأرواح، وبرعوا في إثارة الفتن والتمرد على السلطان، يعملون في تحقيق أغراضهم على إضرام نار الحقد بين الرعية والراعي حتى أصبح العراق في بؤس شديد، كسدت تجارته، وبارت زراعته وأقفرت

من رواد العلم مدارسه بعد أن كان في سالف العصر مهد الحضارة ومضرب الأمثال في وفرة خيراته وعدد علمائه ٠

وكانت هذه الفترة من التاريخ بدء انحطاط الدولة العثمانية وانحلالها وقد دب الفساد في جميع أمورها وتألبت عليها الدول المسيحية وظهرت للوجود المسألة الشرقية وفكرة اقتسام تركة الرجل المريض أي الدولة العثمانية ، وكان سوء إدارة حكام الدولة وعجزهم عن معالجة المشاكل الداخلية نذيراً في فرط عقد وحدة الامبراطورية العثمانية وتقلصها ، وظهرت معها بوادر التمرد في أكثر ولاياتها الغير اسلامية وجاهرت العناصر الغير تركية بنزعتها الاستقلالية ٠

وفي هذا الجزء شواهد عديدة على نضال العراق لاسترداد حريته والتمتع بسيادته ٠ نشكر للأستاذ المؤلف جميله في خدمة تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي٠

Despois (Jean)
Le Hodna (Algérie) - Paris 1953.

الحضنة (الجزائر)

تأليف السيد جان دبوا (أستاذ في كلية الآداب في الجزائر)
يقع الكتاب في (٤٠٥) صفحات من قطع الوسط . طبع في باريز عام ١٩٥٣

وصف المؤلف أحوال اقليم الحضنة الطبيعية والزراعية ودعم بحثه باحصاء دقيق عن المياه والينابيع وأنواع المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية فيه ٠ وذكر أسماء القبائل المتوطنة في هذه المنطقة وأحصى سكانها ٠ وتوسع المؤلف في دراسة قواعد توزيع مياه الري وكيفية الانتفاع بها ٠

والحضنة إقليم جزائري يقع في الجزء الشرقي الجنوبي من عمالة قسنطينة المتاخم لتونس ويعرف أيضاً بشط الحضنة ، وهي بجملتها أرض سبخة في الأنجاد

التي تلي هضاب جبال الأطلس الجنوبية وناحية من نواحي الزاب القديم ، تبلغ مساحتها (٨٥٠٠) كيلومتر مربع ، وأرضها جدبة ، أمطارها شحيحة ، قليلة السكان ، وطبيعة إقليمها صحراوية ، شديدة القيظ في الصيف مع هبوط الحرارة في الليل ، وشتاؤها قارص لاذع ، ولذلك أعرض عنها المستعمرون ولم تتناولها يد الاصلاح كبقية الأجزاء الجزائرية الخصبة التي استولى عليها الدخيلون الأوربيون .

وأهم موارد الحضنة الزراعية القمح والشعير وقليل من الأثمار ومحصولها لا يكفي الاستهلاك المحلي . وينبت فيها الحلفا الذي تستغله بأبخس الأثمان الشركات والمصانع الأجنبية ويستعين المزارعون والقبائل على إنماء مواردهم بتربية الماشية ، وقد اشتهرت هذه المنطقة منذ القديم على ما ذكره ابن حوقل والبكري بوفرة أنعامها وجياد خيولها .

حبذا لو أضاف المؤلف الى بحثه القيم الناحية الاجتماعية والثقافية في هذا الاقليم لتكون دراسته وافية شاملة عن حالته الحاضرة فيتيسر المقارنة بين حاضره وماضيه . وكان الزاب منذ القرن الرابع الهجري ينعم بنهضة علمية مباركة ونبغ فيه طبقة من العلماء والمحدثين ومنهم أحمد بن علي البغاتي والقاسم بن علي خويلد البسكري وعلي بن منصور وأبي الفضل عطية وغيرهم . والله أعلم كيف أصبح حاله اليوم .

تاريخ الوزارات العراقية

وضعه السيد عبد الرزاق الحسني

نشر في ستة أجزاء وطبع في صيدا سنة ١٩٥٣

نشر الجزء الأول من هذا الكتاب القيم في عام ١٩٣٤ وأقبل عليه الناس بارتياح وتهافت على مطالعته القراء وقرّظه في حينه علماء أجلاء ، أشادوا بقيمته العلمية ، وأثنوا على جهود مؤلفه . وأحسن ما قيل فيه ما كتبه عنه المرحوم العلامة أحمد زكي باشا : « وكان في هذا الصنيع البديع مفخرة للعروبة وللناطقين بالضاد ، إذ لم أر له نظيراً يحاكيه أو يدانيه على كثرة مارأيت في مآثر الفرس والرومان واليونان مما اتصل بعلمي القليل » . ويصح هذا القول في كل جزء من أجزائه الستة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان للعراق قصب السبق في تدوين الأخبار ، وكان الصولي نديم خلفاء بني العباس أول من صنف بهذا الموضوع ، وكتابه (الوزراء) من أجل كتب السلف . وها هو أحد أبناء العراق يجود علينا اليوم بكتاب (تاريخ الوزارات العراقية) الذي بذّ كل من تقدمه بمادته وجوهره وسيبقى هذا السفر من أهم المصادر لتاريخ العراق في نشأته الحديثة مؤيدة بالوثائق والمستندات الرسمية .

والأستاذ المؤلف هو شاهد عيان عاصر الحوادث التي دوّنها وخاض معاركها السياسية واعتمد في النقل على شهود عدل حضروا الوقائع وساهموا فيها .

جزى الله المؤلف خيراً عن العلم وجعله لأبناء العروبة قدوة حسنة .

ذكريات

منتخبات من خطب وأحاديث ومقالات لدولة لطفي الحفار

عني بجمعها السيد وجيه بيضون ونشرها في جزئين . يقع الجزء الأول في (٢٩٩) صفحة والثاني في (٢٩٥) صفحة من قطع الوسط . طبعت في دمشق سنة ١٩٥٤

لم يزل تاريخنا الحديث على قرب عهده بنا ووفرة مصادره تعوزه المادة الأساسية لتدوين وقائعه على ضوئها ، وهذه المادة هي الوثائق المعاصرة التي ينهل من معينها المؤرخ ويستخلص منها الحقائق ، وذكريات دولة الحفار هي في عداد هذه السجلات الحافلة بالوقائع بل موسوعة لحوادث سورية خلال نصف قرن عايشها عن كثب صاحب هذه الذكريات .

إن السيد الحفار الذي رافق الحركة العربية منذ فجرها وخاض نضالها الوطني في عهد الانتداب ، وكان في طليعة المخلصين الذين قادوا كفاح الشعب السوري في سبيل حريته وألهبوا مشاعره وأحسنوا توجيه وعيه القومي في الحقلين السياسي والاقتصادي ، فهو جدير بأن تجمع ذكرياته وتخلد مآثره عظة للأجيال وتذكرة .

نشكر للناشر الذي جمع شتات هذه الذكريات وضمها في باقتين يفوح منهما أرج عاطر ويشع منهما نور سافر تفيء صفحات غامضة من حاضر تاريخنا .

جعفر الحسني

آراء وأنباء

كلمة الأمير مصطفى الشهابي (١)

في حفلة استقباله عضواً عاملاً

في مجمع اللغة العربية بمصر

يقولون إن لكل نفس في هذه الحياة هوى تستلذه وتميل اليه . فسبحان الذي جعل هوى نفوسنا حب لغتنا المضرية ، حباً بلغ فينا مبلغ العشق لها ، بل مبلغ الشغف بها . وسبحان الذي ما أحلَّ في قلوبنا هذا الضرب من الهوى إلا بعد أن أبدلنا بالتعب فيه راحة ، وبالألم لذة ، وبالسأم غبطة ورضى .

لقد آمنا بلغة القرآن ايماننا بالقرآن . فما عسى أن تكون أمنية كل مؤمن بعظمتها ، موقن بحيويتها ، كلف ببيانها وروعتها ؟ أهو غير الجلوس مع المؤمنين الصابرين ، المداوين لأدوائها ، والحافظين لسلامتها ، والمجددين لشبابها ، والعاملين على جعلها أصلح ما تكون للتعليم العالي في الجامعات ، وللتعبير الصادق عما لنا من حاجات كثيرة في خضم هذه المدنية الحاضرة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد شئتم من قبل أن أشارككم في عملكم مراسلاً لكم من دمشق ، وشئتم اليوم أن أشارككم فيه عاملاً معكم في حصن اللغة والأدب الحصين ، فشكراً

---

(١) انتخب مجمع اللغة العربية في مصر زميلنا الأمير مصطفى الشهابي عضواً عاملاً في المكان الذي خلا بوفاة الفقيد العلامة محمد كرد علي . وعقد في ٢٧ من كانون الأول سنة ١٩٥٤ جلسة علنية لاستقباله ألقى فيها الدكتور منصور فهمي كلمة الاستقبال باسم المجمع ، ثم ألقى الأمير الشهابي الكلمة التالية متحدثاً عن سلفه الفقيد ، ومستطرداً الى الحديث عن قرارات مجمع مصر العلمية ومبلغ فائدتها لواضعي المصطلحات العلمية :

لكم أيها الرفاق الأعزاء شكراً . وهل في سويداء القلب غير الشكران ، عندما يكون بيت المتنبي على عذبة اللسان ؟

أما العلامة الرئيس ، مربي رجال هذا الجيل ، ورأس علماء هذا الرعيل فأرجو منه أن يتقبل شكر العارف بغزارة علمه ، وجزيل فضله ، وجليل قدره .

وأما أنت أيها الأخ العلامة المنصور [1] فقد تفضلت فأطريتني بكلمات كريمة وددت لو أني أستحقها . وما تلك منك إلا عين الرضا تخفي ما فيَّ من عيوب ، أو هو إناء الكرم والمروءة والأريحية لا ينضح إلا بما فيه .

ويشجيني بعد هذا أن أتكلم على سلفي الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله . فلقد صادقته المودة خمساً وثلاثين سنة ، ورافقته في المجمع العلمي العربي بدمشق سبعاً وعشرين سنة ، فكان لي فيها كلها نعم الصديق ونعم الرفيق .

وماذا عسى أن أقول فيه ، في دقائق معدودة ، والذكريات تتزاحم في خاطري ، فلو أتيح لي أن أنهض لها لألفت فيها كتاباً برأسه ؟

كان الفقيد أنشط أديب أطلعته دمشق في النصف الأول من القرن العشرين . وناهيكم من رجل قضى أكثر من خمسين سنة من عمره ، والكتب والأوراق مبثوثة على مكتبه ، والقلم مثبت بين أنامله ، فما كف قط عن البحث وعن الكتابة حتى آخر يوم من حياته .

ولنا أن نتصور مبلغ الفائدة فيما ينتجه الأديب المطبوع في هذه البرهة من الزمن ، عندما يكون مجداً في عمله ، مخلصاً للغته ، محباً لقومه ، ساعياً الى نشر العلم والأدب في بيئته .

فلا عجب إذن أن يكون للأستاذ ذلك التأثير الكبير في نهضة الشأم الأدبية وأن يعده الشاميون عامة ، والدمشقيون خاصة في طليعة رجال تلك النهضة ،

---

(١) هو الدكتور منصور فهمي كاتب سر مجمع اللغة العربية في مصر . فهو الذي انتخبه مجلس المجمع لالقاء كلمة استقبال الأمير مصطفى الشهابي باسم المجمع . وقد استغرق إلقاؤها زهاء ساعة . أما رئيس المجمع المشار اليه في الجملة السابقة فهو العلامة الكبير احمد لطفي السيد .

وأن يجمعوا على أنه كان أكبر مشجع لشباب الشام على مدارسة كنوز الأجداد الأدبية ، وعلى التزود بزاد العلوم العصرية . ولم تكن محاربة الجهل في الشام من الأمور السهلة في أوائل هذا القرن . فلقد كانت حجب الجهل على العقول مسدولة ، وكانت المدارس التي تعلم العلوم العصرية جد قليلة ، فحارب الأستاذ الجهل والحجاب والبدع والخرافات ، وحمل بقلمه على مغتصبي الأوقاف الاسلامية ، وعلى الشعوبيين أعداء العرب ، وعلى بعض المستشرقين ممن تعصبوا على العرب والمسلمين ، وضمّنوا كتبهم آراء طائشة ظلموا بها المدنية الإسلامية وتأريخها المجيد .

ومما يسر له معالجة أدوائنا الاجتماعية والتعليمية رئاسته للمجمع العلمي العربي سنين عديدة ، وتقلده منصب وزير المعارف في سورية بضع مرات .

وهو من الأدباء السوريين الأُول الذين رحلوا الى مصر في أوائل هذا القرن ، واتصلوا بأدبائها ، وحضروا مجالس الإمام الشيخ محمد عبده ، وكتبوا في بعض الجرائد المصرية كالرائد المصري والمؤيد والظاهر وغيرها . وقد أصدر في القاهرة مجلة « المقتبس » الشهرية فعاشت فيها ثلاث سنين . ثم نقلها الى دمشق سنة ١٩٠٨ ، بعد الانقلاب العثماني ، وسقوط السلطان عبد الحميد ، فلبثت تصدر فيها خمس سنين . وكانت هذه المجلة في الشام فريدة فيما تضمنت من بحوث في الأدب والاجتماع والمخطوطات العربية وتأريخ العرب والمسلمين . ولا شك في أن الفقيد كان ، بعد أستاذه الشيخ طاهر الجزائري ، رأس الباحثين في هذه العلوم ، في نهضة الشام الحديثة .

وكان له جلد عجيب على التنقير عن تراثنا الأدبي القديم . وتيسر له أن يرحل غير مرة للتفتيش عن نفائس دور الكتب المشهورة في القاهرة والقدس وباريس وبرلين وليدن ومدريد والأسكوريال وغيرها ، كما تيسر له أن يتصل بعدد كبير من المستشرقين ، وأن يذاكرهم ويراسلهم ، ويجادلهم في أمور تتعلق بالحضارة الاسلامية ، وبالقدامى من رجالات العرب والمسلمين .

وفي دمشق كانت داره ندوة الأدباء والمتأدبين . وكذلك غرفته في المجمع العلمي العربي . فلكم اجتمعنا فيها ، نحن أعضاء ذلك المجمع ، نتذاكر في المحاضرات التي سنلقيها في ردهته ، أو نتناقش في موضوعات لغتنا العربية ، وموضوعات أدبها في القديم والحديث .

ولكم استقبلنا في تلك الحجرة من علماء وأدباء وأساتيذ ومستشرقين ممن يزورون دمشق ، ولا يغادرونها ما لم يعرجوا على مجمعها العلمي العربي .

وكانت بحوث الأستاذ في مجلة ذلك المجمع متلاحقة ، حتى كاد يكون له في كل عدد من أعدادها بحث في الأدب أو التاريخ أو الاجتماع .

واذا ذُكر الشيوخ الذين لم تحل الشيخوخة دون مثابرتهم على النشاط العلمي جاء الفقيد في طلائع هؤلاء الشيوخ المجدين .

ففي بضع السنوات الأخيرة من حياته صنف كتاب غوطة دمشق ، وكتاب كنوز الأجداد . وحقق ونشر سيرة أحمد بن طولون للبلوي ، والمستجاد من فعلات الأجواد لأبي علي المحسن التنوخي ، وتاريخ حكماء الاسلام لظهير الدين البيهقي ، وكتاب الأشربة لابن قتيبة ، وكتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي ، وهو آخر كتاب نشره .

ولا شك في أن كتاب خطط الشام المطبوع سنة ١٩٢٥ م بدمشق في ستة أجزاء هو أجل كتب الأستاذ شأناً وأغزرها فائدة . وقد ذكر لي مرة أنه لم يبق له في الحياة إلا أمنية واحدة ، وهي أن يتاح له طبع هذا الكتاب طبعة ثانية منقحة . ولكن هيهات أملُ الأستاذ فقد حالت الأقدار دون تحقيقه .

ومؤلفات الفقيد كثيرة ، على ما هو معروف ، ويكفي أن أذكر منها ثلاثة كتب طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة : فالأول كتاب الاسلام والحضارة العربية ، وهو في جزءين تكلم فيهما على العلوم والإدارة والسياسة في الدول الاسلامية ، ودافع فيهما عن مدنية العرب والمسلمين أصدق دفاع .

والثاني كتاب أمراء البيان وهو أيضاً في جزءين ترجم فيهما لعشرة من أئمة البيان العربي ، وهم عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعمرو بن مسعدة ، والصولي ، واحمد بن يوسف الكاتب ، والزيات ، والجاحظ ، وأبو حيان التوحيدي ، وابن العميد . قال الأستاذ المصنف : «هؤلاء هم العشرة المبشرة ، في عصر العرب الزاهر ، يوم أضحى اللسان العربي لغة حضارة وعلم ، وكان في القرن الأول لغة دين وأدب» .

والكتاب الثالث هو كتاب رسائل البلغاء نشر فيه رسائل لعبد الحميد الكاتب ، والأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ، وكتاب العرب أو الرد على الشعوبية لابن قتيبة ، وملقى السبيل لأبي العلاء ، والرسالة العذراء لابن المدبر ، وغيرها من الرسائل دبجتها يراعة عدد من رجال الأدب الرفيع في العصور الماضية .

وكان الأستاذ من كتاب العربية المبرزين في هذا العصر . فقد امتاز بأسلوب سهل رشيق ، وبيان ناصع مشرق . وقليل هم الكتاب الذين يستطيعون أن يجولوا بمثل قلمه في الموضوعات المتنوعة التي تضمنتها مصنفاته ومحاضراته العديدة .

لقد قضى الأستاذ كما قلت ، نصف قرن من الزمن حاثاً شباب الشأم على العلم ، باحثاً عن تراث الأجداد الأدبي ، مدافعاً عن المدنية العربية والاسلامية ، داعياً الى الجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية .

ولئن شئتم أن أحل اليوم محله ، فليس من السهل عليَّ أن أملأ فراغاً حصل بوفاة مثل هذا الأديب الكبير .

فأنا لست سوى نقار بسيط ينقر في دمشق ، منذ نحو ثلاثين سنة ، عن مصطلحات علمية في علوم الزراعة والمواليد ، فيكبو ويقوم ، ويخطئ ويصيب ، ولا مرجع له إلا كتب الأجداد وما فيها من ألفاظ علمية قديمة ، ولا هادي له إلا ما أقره مجمعكم الموقر من قرارات حكيمة في قياسية بعض الأوزان العربية .

ولعل المتأدبين الذين لم يعنوا بوضع الألفاظ العلمية أو تحقيقها لا يقدرون هذه القرارات حق قدرها . أما الذين يضعون المصطلحات العربيـة ، من دون أن يكون لهم اختصاص بفقه اللغة ، فقد وجدوها – أي القرارات – منارة هدتهم الى السبيل القويم ، وجنبتهم التيه في بيداء كتب اللغة القديمة .

واسمحوا لي ، بعد هذا ، بأن أذكر لكم في جمل قليلة مبلغ الفائدة التي أفدتها من تلك القرارات ، عندما كنت أصنف معجمي المطبوع سنة ١٩٤٣ بدمشق . والهدف الوحيد الذي أرمي اليه إنما هو الإفصاح عن فضل المجمع على واضعي المصطلحات العربية ، وعلى نقلة العلوم العصرية .

فما أقره المجمع : « اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان . والمجمع يجيز هذا الاشتقاق – للضرورة – في لغة العلوم » .

واستناداً على هذا القرار ألفيتُ الضرورة تقضي بوضع أسماء لبحوث زراعيـة أصبح اليوم كل بحث منها علماً قائماً برأسه مثل زِهارة (Floriculture) من زهر ، وهي زراعة نباتات الزهر ، ونِحالة (Apiculture) من نحـل ، وهي تربية النحل ، وحِراجة (Sylviculture) من حرجة ، وهي زراعة الأحراج ، الى غير ذلك من المشتقات المماثلة كالبَستنة من بستان ، والبَرعمة من برعم الخ .

ومما أقره : « تصاغ مَفْعَلة قياساً من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول للمكان الذي تكثر فيه الأعيان ، سواء أكانت من الحيوان ، أم من النبات ، أم من الجماد » .

وعملاً بهذا القرار صغت على وزن مفعلة عدداً كبيراً من الألفاظ مثل مَلْبَنة (Laiterie) ، ومَزْبَدة (Beurrerie) ، ومقشدة (Crémerie) ، ومقطنة (Cotonnerie) ، وموردة (Roseraie) ، ومَرَزّة (Rizière) ، ومقصبة (Roselière) ، ومفرسة (Haras) ، ومَطيَرة (Volière) ، ومتاتة (Mûraie) وهلم جرا .

ومن قراراته : « يصاغ (فَعَّال) قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء . فاذا خيف لبسٌ بين صانع الشيء وملازمه كانت صيغة فَعَّال للصانع ، وكان النسب بالياء لغيره ، فيقال زَجَّاج لصانع الزجاج ، وزُجاجِيٌّ لبائعه » .

وهذا القرار أيضاً سهل عملي فقلت مثلاً زَهَّار لبستاني الزهر ، وزَهْرِي لبائعه ، وكلاهما بالفرنسية (Fleuriste) . وقلت كَرَّام لغارس الكروم (Viticulteur) ، ووَرَّاد لزارع الورد (Rosiériste) ، الى غير ذلك من الكلم .

وهناك القرار الذي يجيز الصياغة قياساً من الفعل الثلاثي على وزن مِفْعَل ومِفْعَلة ومِفعال للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء . فلقد وضعتُ ، بناء على هذا القرار ، أسماء عديدة لآلات وأدوات زراعية حديثة كالمِبْذَر (Semoir) ، والمحصد (Moissonneuse) ، والمدرس (Batteuse) ، والمرخمة أو المحضنة (Couveuse) ، والمِحَشَّة (Faucheuse) دع الأسماء التي هي على وزن اسم الفاعل ومبالغته كالناصبة (Releveur) وكالجَرَّارة (Tracteur) الخ .

وكذلك القرار الذي يجيز لنا صياغة مصادر على وزن فِعالة ، من أبواب الثلاثي ، للدلالة على الحرفة أو شبهها . فلقد رجعت اليه في مثل قولي غِراسة من غَرَسَ ، فجعلتها أمام كلمة (Arboriculture) ، وإن لم ترد الغراسة في المعجمات ، في مادة غرس ، بل وردت عرضاً في مادة خَرَجَ في التاج واللسان . ومثل رِسامة ، وضعها غيري لحرفة الرسم (Dessin) .

ثم قياسية صنع المصادر الصناعية ، بأن يزاد على الكلمة ياء النسب والتاء . أفلم ييسر لنا هذا القرار مثل قولنا في العلوم فيلَوْرِية وحَمْضية وعطرية وسمية وخشبية ، مثلما قال القدماء مائية وكيفية وكمية وعروبية وفروسية وغير ذلك .

وكذلك قياسية صيغة فُعَال للمرض ، مصدراً من فَعَلَ اللازم المفتوح العين ، فقد استفاد أساتيذ الطب من هذا القرار ، ووجدتهم لم يكتفوا به ، بل اشتقوا من أسماء الأعيان أيضاً كلمات على هذا الوزن ، مثل وُرَاك (Coxalgie) من الورك ، وعُصَاب (Nevralgie) من العصب .

وأجاز المجمع التعريب عند الضرورة ، فيسر لي تعريب عدد غير قليل من أسماء النبات والحيوان والمعادن . وهي أعيان لم تعرفها العرب ، وكلها لا بد من تعريب أسمائها ، لأنها منسوبة الى أعلام ، أي الى علماء أو ملوك أو حكام أو أقاليم أو مدن أو أحد آلهة القدماء ، وإما مقتبسة من إحدى اللغات كلغات هنود أمريكة أو غيرهم من الأقوام . مثال ذلك دهلية (Dahlia) فهي زهرة نسبوها الى نباتي سويدي اسمه دهل . ودروينية (Darwinia) فهي جنبة للتزيين سميت باسم دروين العالم المواليدي المشهور . وكاكاو أو كاكاؤو فهي من لغة شعب الأزتيك القديم في مكسيكة . وكذلك الشوكولاطة الخ .

ونحن لا نجيز لأنفسنا التعريب إلا عند الضرورة ؛ أي اذا لم نجد في كتبنا القديمة كلمة عربية تقابل الكلمة الأعجمية ، ثم إذا لم نستطع إيجاد كلمة عربية جديدة سائغة بوسائل الاشتقاق والمجاز . ولكنه لا مفر لنا من تعريب مثل ما ذكرت من أسماء .

وقد أجاز المجمع النحت عندما تلجئ اليه الضرورة العلمية . ولكنه سار فيه بتؤدة يحمد عليها . ولم أجد في أجزاء مجلته السبعة إلا بضع كلمات منحوتة . وأنا لم أنحت في معجمي سوى كلمات تعد على الأصابع ، منها كلمة لُبْنَأْرْز مثلاً ، فهي من كلمتي لبنان وأرز . وهي تطلق على شجر للتزيين غير أرز لبنان ، واسمه العلمي (Libocedrus) . وهذا الاسم العلمي منحوت من (Liban) و (Cedrus) أي لبنان وأرز ، فاضطررت مرغماً أن أسميه لبأرزا .

والذوق له شأن كبير في موضوع النحت . وكذلك سهولة الفهم . وكثيراً ما يكون استعمال كلمتين عربيتين أصلح وأدعى الى الفهم من استعمال كلمة واحدة منحوتة يمجها الذوق ويستغلق فيها المعنى . فالطالب الأوربي يحفظ الاصول والصدور والكواسع اليونانية في الكلمات العلمية الأعجمية . ولذلك اذا قلنا له مثلاً : هذه الحشرة هي من رتبة الـ (Orthoptères) أو الـ (Névroptères) فهو يدرك معنى هاتين الكلمتين بلا مشقة . وكذلك اذا قلنا للطالب العربي : ان الحشرة المذكورة هي من رتبة مستقيمات الأجنحة ، أو من رتبة عصبيات الأجنحة ، فهو أيضاً يدرك المعنى من دون أن يكد ذهنه . ولكننا اذا فاجأنا طالبنا العربي بمثل قولنا مُسْجَنَيَّات أو عَصْجَنَيَّات ، فهو سينظر الينا مشدوهاً فاقد الفهم . واذا رفقنا به ، وتركنا كلمة جناح على حالها ، قائلين مسجناحيات وعصجناحيات ، فهو أيضاً لن يفهم معناهما ما لم نقل له انها منحوتتان من كذا وكذا . ومتى احتاج الأمر الى بيان أصول المنحوتات العلمية ضاعت فوائد النحت .

ولكل لغة قوالبها وأساليبها ، والعربية لغة اختزال . ولا يضيرها التعبير عن معنى من المعاني العلمية بأكثر من كلمة ، بل الذي يشوهها انما هو أن يضاف اليها ألوف من المنحوتات الثقيلة الغامضة التي لا لزوم لها البتة .

والقائلون بالنحت لهم اعتراض معروف ، وهو انه من السهل النسب الى الكلمة الواحدة المنحوتة ، خلافاً للنسب الى المركب الإضافي . ولكن ماذا يجبرنا على ترجمة النسبة بالنسبة . فالترجمة لا تكون دائماً ترجمة كلمة بكلمة ، ولا صيغة بصيغة ، بل تقوم على حسن فهم المعنى وإفراغه في قالب عربي مقبول .

وقد أجاز المجمع استعمال المولد من المصطلحات العلمية والصناعية وغيرها ، التي جروا فيها على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما . وفي هذا القرار مجال لاستعمال عدد كبير من الألفاظ العلمية التي لم تتضمنها معجماتنا

الأصلية ، ولكنها وردت في كتب علمية قديمة مشهورة . وفوائد هذا القرار واضحة .

ويطول بي نفس الكلام اذا ما رحت أبحث في سائر قرارات المجمع العلمية ، كترجمة بعض الزوائد اليونانية من صدور أو كواسع ، وكضبط الأعلام الجغرافية ، وكتابة بعض الحروف الأجنبية بالحروف العربية ونطقها ، وكتابة الأعلام اليونانية واللاطينية بحروف عربية .

وهيهات أن يتسع المجال للكلام على تلك البحوث اللغوية الجليلة المبثوثة في مجلدات المجلة ، والتي بلغت الذروة في دقة التحقيق العلمي . ولا يمكنني أيضاً الكلام على المصطلحات العلمية التي وضعها المجمع أو أقرها ، فعدّها العارفون أصلح مصطلحات عربية لما يقابلها من الألفاظ العلمية الأعجمية .

ولا تظنوا أيها السادة أن مصطلحات المجمع هذه لبثت مدفونة في صفحات المجلة . فالحقيقة أنه ما من أستاذ نبيه يؤلف كتاباً مدرسياً إلا ويرجع الى مجلة المجمع في التفتيش عن ألفاظ عربية في علمه . ولكم سألني الأساتيذ والمدرسون وغيرهم في الشام عن المجلة ، وعن السبيل الى تدارُكها ، لأنهم لا يكتفون بمراجعتها في خزانة المجمع العلمي العربي ، أو خزانة الجامعة السورية ، بل يتوق كل منهم الى جعلها في خزانته الخاصة .

ويهم كل عربي حريص على سلامة لغته أن يكون مجمع اللغة العربية في مصر مرجعاً تؤول اليه جهود الأفراد وجهود الجماعات التي تعنى بوضع المصطلحات العلمية في جميع البلاد العربية . فلقد أصبح اختلاف هذه المصطلحات داء من أدواء لغتنا المضربة . وهذا الداء ينمو ويستشري كلما اتسعت الثقافة في أقطارنا ، وازداد فيها عدد نقلة العلوم الحديثة الى لساننا ، أو عدد المؤلفين في تلك العلوم . ففي كل قطر توضع مصطلحات جديدة لا يدري علماء الأقطار الأخرى عنها شيئاً . وتكاد الصلات تكون مقطوعة بين أساتيذ الجامعات وكلياتها في مصر والعراق والشام . وإذا تهادوا مؤلفاتهم ، تعصب كل أستاذ

مصطلحات التي وضعها أو التي ألف استعمالها . وربما راح يزري بمصطلحات زملائه . وربما تطاعن الأساتيذ في الصحف ، بهوادة أو بلا هوادة ، حتى في البلد الواحد .

ونروح نفتش عن حكم يكون في حكمه فصل الخطاب ، فلا نجد عندنا إلا هذا المجمع الذي له مكانته المرموقة في الأقطار العربية كافة . فهو الأداة الوحيدة التي تستطيع أن تصنف معجماً أعجمياً عربياً لمصطلحات العلوم والآداب والفلسفة والمخترعات الحديثة ، وأن تفرضه على حكومات الأقطار العربية ، وعلى أدبائها وعلمائها . والسبيل الى ذلك في نظري إشراك الدول العربية في نفقات هذا العمل الكبير ، بقرار يتخذ في مجلس جامعة هذه الدول ، وإشراك الأثبات من الاختصاصيين بالمصطلحات ، في مصر وفي غير مصر ، في وضع قوائم أو معاجم صغيرة بمصطلحات علومهم . وعندما يجتمع كل ذلك في هذا المجمع تمحص فيه المصطلحات ، ويصنف المعجم ، ويطبع ، ويذاع بثمن بخس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأعتقد أن هذا العمل لا يستغرق أكثر من بضع سنوات ، ولا سيما إذا عوض كل عامل في المعجم عن أتعابه تعويضاً عادلا .

وأكاد أجزم أنه ما من دولة عربية تحجم عن دفع ما يصيبها من نفقات كبيرة كانت أو صغيرة . وتكون حكومات تلك الدول ميالة الى فرض المعجم ومصطلحاته على وزاراتها ومدارسها ومؤسساتها العامة ، لأنها تعد نفسها مشتركة مالياً وأدبياً في تصنيفه .

وبذلك تتوحد المصطلحات في أقطارنا العربية ، ويكون الفضل الأكبر لمجمعكم الموقر في إنجاز هذا العمل الحيوي الكبير في مدة وجيزة .

وبعد ماهي يا سادتي مغبة تطويقكم لعنقي بهذا الطوق الذهبي الجميل من المنة والإحسان ؟ لقد كنت في دمشق أتلمس طريقي ، فأضع الصحيح والمغلوط ،

والراجح والمرجوح من المصطلحات . أما بعد اليوم فقد يسرتم لي عرض ما أضع أو أحقق منها ، على علماء أثبات ، بحاثين في كتب العلوم وكتب اللغة ، يرون بالعين المجردة ما لا يراه غيرهم بالجهر .

وقصاراي ، كلما التبست عليَّ الأمور ، أن أميل على جوانبكم ، ميلان الشاعر على جوانب أبيه .

قدّرني الله على أن أكون عند ظنكم بي . ولا زالت مصر العزيزة رأساً للعالم العربي ، ومعقلاً منيعاً للغة القرآن .

مصطفى الشهابي

الخزانة الشرقية

الجزء الأول طبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة «١٩٥٢» م

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

-١-

تأليف الباحث حبيب زيات ، وأكثر هذه الخزانة في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وهي من الكتب النافعة ، ولمؤلفها أسلوب خاص به في البحث والاختيار ، ولا يعاب الذوق الأدبي ما دام ملتزماً لأصول البحث العلمية ، وقد ضمَّن كتابه أشياء ممتعة ، تغلب عليها الجدَّة والطرافة ، وقال في مقدمة هذا الجزء في الصفحة «ه»:

«وأرصدنا لما [الدروس والفصول المقدَّم ذكرها هناك] هذا المجموع الذي دعوناه «الخزانة الشرقية» لاقتصاره على ما يخصّ الشرق وحده والشرقيين في القرون التي سبقت دولة الأتراك العثمانيين ، دون أقلّ تعريب [1] عن الأصول الأروبية (كذا) أو اقتباس ممن تقدمنا من الكتبة والمؤرخين» .

---

(١) أراد «دون أقل نقل او ترجمة» فالتعريب عند الفصحاء هو جعل الكلمة الأعجمية على وزن كلمة من كلم العرب ، ومن ذلك كتاب «المعرّب» للجواليقي .

وقد رأينا في هذا الجزء وغيره من الأجزاء الثلاثة الأخرى ما يستوجب الحقائق العلمية والذمة الأدبية تنبيه الباحث الفاضل عليه من أمور وهمَ فيها ، ونقتصر في هذا التنبيه على الجزء الأول فنقول :

١ — إنّ اقتصاره على الكتب العربية والاسلامية مما يشكر له ويستحسن منه لأن الجدّة والطرافة اللتين أشرنا اليهما من أعسر الأمور في مثل هذه البحوث ، إلا أنه لم يلتزم ما قال التزاماً تاماً ففي الصفحة « ٤٨ » و « ١٥١ » وغيرهما[1] نقل من الكتب الأوربية ، فلو حذف « دون » واستبدل بها « بأقلّ » لكان خيراً له .

٢ — وقال في ـ ص ٣ ـ « وظلّ النصارى دهراً طويلاً يتخذون الأسماء الاسلامية البحتة حتى بطانة الخلفاء دون أن يقع عليهم أقلّ إنكار مثل الحسين ابن عمرو كاتب المقتفي وعلي بن الراهبة طبيبه ... » .

ولم يذكر مرجع هذا القول لحسبانه إياه من البديهيات ولكنه لم يميز بين الخليفة المقتفي « ٥٣٠ — ٥٥٥ » هـ والخليفة المكتفي « ٢٨٩ — ٢٩٥ » هـ ، وقد علمنا أنه أراد الخليفة المكتفي بأنّ المقتفي لم يكن له كاتب اسمه « الحسين بن عمرو » فهذا كاتب المكتفي ، قال أبو جعفر الطبري في حوادث سنة « ٢٨٩ » من تاريخه « ولما توفي المعتضد كتب القاسم بن عبيد الله بالخبر الى المكتفي كتباً وأنفذها من ساعته ، وكان المكتفي مقيماً بالرقة ، فلما وصل الخبر اليه أمر الحسين بن عمرو النصراني كاتبه يومئذ بأخذ البيعة على من في عسكره ووضع العطاء لهم ففعل ذلك الحسين »[2] .

٣ — وقال في الصفحة « ٧ » منها « لم تدخل الألقاب مع الأسماء والكنى

(١) كما في الصفحة « ٥ » من الجزء المذكور .

(٢) تاريخ الأمم والملوك « ج ١١ ص ٣٧٣ » من طبعة المطبعة الحسينية بمصر .

في حدّ الأعلام إلا في الدولة العباسية ، وأوّل ما اتخذت بالاضافة الى الدولة[1] في أيام الخليفة المكتفي بالله ٢٨٩ — ٢٩٥ ﻫ قال ابن القلانسي : وانما كان الرسم جارياً في القديم باطراح الألقاب والانكار لها بين ذوي العلوم والآداب ، فلما ظهرت الدولة البويهية الديلمية لقب أول مسعود نبغ فيها بعماد الدولة بن بويه ...» .

فهو هنا لم يميز بين المستكفي « ٣٣٣ — ٣٣٤ » ﻫ والمكتفي المقدّم ذكرُه ، وذلك أن الألقاب التي ذكرها إنما أُحدثت على عهد المستكفي العباسي لا على عهد المكتفي ، وفي أيامه نبغ عماد الدولة علي بن بويه ، قال ابن الأثير في حوادث سنة « ٣٣٤ » ﻫ : « ووصل معز الدولة الى بغداد حادي عشر جمادى الأولى فنزل بباب الشماسية [2] ، ودخَل من الغد الى الخليفة المستكفي وبايعه وحلف له المستكفي ... وخلع الخليفة على معزّ الدولة ولقبه ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، وأمر أن تضربَ ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم[3] ...» .

٣ — وذكر في « ص ١٠ » أنّ طائفة من النصارى الأعيان كانوا يتلقبون أيضاً نظير الأسالمة أي يضيفون ألقابهم الى الدين قال « ولا بأس أن نذكر بعضاً منهم تنويراً للأذهان فمنهم جمال الدين علي بن اثردي النسطوري وتاج الدين ماري بن صاعد توما وكيل مجاهد الدين أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير ...» . وذكر آخرين . ولم يذكر المرجع التاريخي أيضاً ، على أنّ ذلك لم يكن مقبولاً من باحث رزين العقل ، لأنّ الدين في الدول الاسلامية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) أراد « واول ما اتخذت مضافة الى الدولة » . ومعنى « اتخذت بالاضافة الى الدولة : اتخذت بالنسبة الى الدولة » وليس هذا موضعه وسبقه اليه ابن جبير .

(٢) كانت الشماسية من شمالي بغداد يومئذ ونزل هو بيابها اي في ارض محلة « الصليخ » الحالية من الجانب الشرقي لدجلة ، ومحلة الصليخ مجاورة للأعظمية المدفون فيها الامام ابو حنيفة النعمان .

(٣) كامل ابن الأثير « ج ٨ ص ١٤٨ » من طبعة المطبعة المجاورة لمسجد القطب الدردير سنة ١٣٠٣ ﻫ .

هو « الاسلام » عند إطلاقه وتعريفه بالألف واللام ، فكيف يكون مسموحاً يومئذ لنصراني بأن يلقب مضافاً الى الدين ؟ فكان إذا أسلم نقل لقبه من « جمال الدولة » أو « جمال الملك » مثلاً الى « جمال الدين » فأما الإضافة الى الدين وهو على نصرانيته فغير جائزة أصلاً . ولكنْ من الكتب التاريخية ما يصحّف فيه أحياناً « جمال الدولة » الى « جمال الدين » . فان كان الباحث الفاضل وجد نصاً على نصرانية « علي بن اثردي » هذا فقد تصحَّف لقبه « جمال الدولة » الى « جمال الدين » في عيون الأنباء « ج ١ ص ٢٩٨ » وإلا فهو مسلم ، والقصيدتان اللتان قالها فيه همام الدين أبو الحسن علي بن اسماعيل العبدي الشاعر تصرّحان باسلامه ، وقد ذكرهما مؤلف عيون الأنباء ففي الأولى يقول له سنة « ٥٨٠ » على عهد الخليفة الناصر لدين الله المقدّس السيرة بين الخلفاء :

سمعاً جمال الدين قو ل مصاحب الودّ السليم
إنا يجمعنا الولا ء على صراط مستقيم

ويهنئه في الثانية بالعيد ويقول :

وليهنك العيد الذي به العُداة لم تُهنَ

وهذا القول لا يُقال إلا لمسلم فما دليل الباحث الفاضل على نصرانية جمال الدين علي بن سعيد ابن اثردي ؟

وأما « تاج الدين ماري بن صاعد توما ... » المذكور فقد خلط الباحث ـ وهو يدّعي الاختصاص بتاريخ النصارى ـ بين لقبه ولقب أخيه أبي طاهر ، وجعلَ اللقب « تاج الدين » بدلاً من « تاج الدولة » قال مؤلف الكتاب الذي وسمناه بالحوادث الجامعة ظنّاً في حوادث سنة ٦٤٣ هـ « وفيها توفي الحكيم شمس الدولة أبو الخير سهل بن [صاعد بن] توما النصراني اليعقوبي ... وحزرت تركته فكانت ستمائة ألف دينار ... وخلع على أخويه فخر الدولة ماري

وتاج الدولة أبي طاهر ، ورتب فخر الدولة ماري في جميع الأشغال التي كانت منوطة بأخيه ... ورتب تاج الدولة وكيل باب عنبر ...» [(١)] .

فلقب «تاج الدولة» لا تاج الدين كما زعم حبيب زيات هو لقب أبي طاهر ، و «فخر الدولة» هو لقب ماري بن صاعد بن توما أخي المذكور ، ويؤيد تلقيب ماري بفخر الدولة ما ذكره ابن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب قال في باب «الفخر» من معجم الألقاب المذكور «فخر الدولة أبو علي وأبو الخير ماري بن أمين الدولة صاعد بن شمس الدولة سهل بن أبي عبد الله توما النصراني اليعقوبي البغدادي الكاتب ، قال شيخنا [ابن الساعي] في تاريخه : في صفر سنة ثلاث وأربعين وستمائة رتب فخر الدولة ماري بن صاعد في جميع الأشغال التي كانت منوطة بأخيه شمس الدولة سهل بن صاعد ... «ورتب أخوه تاج الدولة أبو طاهر وكيل باب عنبر [(٢)] ...» .

فعلى هذا يظهر أنّ الرجل لم يُحسن النقل ولا أجاد البحث ، وهذا الاعتراض يتوجه على كل من ذكر من النصارى الذين ادّعى تلقيبهم مضافين الى الدين وهم لم يدخلوا في الاسلام ، ويكفيك من القلادة ما أحاط بالجيد .

٤ — ونقل في «ص ١٧» من خزانته أن من الخواجات [(٣)] الوزراء «ناصر الدين خليفة ابن خواجا علي شاه وزير ابن ابي سعيد ٧٣٨ هـ (١٣٣٧/٨ م)» . وذكر أنه نقلَ ذلك من كتاب السلوك لتقي الدين المقريزي المحفوظ بدار كتب باريس الوطنية (١٧٢٦ ج ١ ص ٤٦٤) ولم يسائل نفسه من «ابن أبي سعيد هذا ؟» فالوارد في نصّ السلوك من حوادث سنة «٧٣٨» المقدم ذكرها الخاصّ بذلك هو قول المقريزيّ :

---

(١) الموسوم بالحوادث الجامعة «ص ١٩٨» من طبعة بغداد .
(٢) تلخيص معجم الألقاب «ج ٤ ورقة ٣١٤» من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق .
(٣) فاتته اشياء عن الخواجات والخواجكية لا نرى محلاً لذكرها فلسنا في سبيل الاستدراك عليه بل في التعقيب على ما وهم فيه .

« وفيها قدم ناصر الدين خليفة بن خواجا علي شاه وزير أبي سعيد ، فأكرمه السلطان وأنعم اليه (كذا) وأجرى له راتباً بدمشق ثم أنعم عليه بتقدمة ... » . فهو أبو سعيد لا « ابن أبي سعيد » كما ذكره الباحث المذكور ، وهو آخر سلاطين الدولة الايلخانية المعروفة وترجمته مشهورة في كتب التاريخ كالسلوك للمقريزي والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني والوافي بالوفيات للصفدي والنجوم الزاهرة والمنهل الصافي لابن تغري بردي ، والموسوم ـ كن ـ بالوزارة والده لا هو ، ففي نقله وبحثه غلطتان : الزيادة في النصّ وسوء الفهم .

ومن هذا الضرب نقله وتصديقه بالمصحّف المستحيل كقوله في « ص ٣٨ » نقلاً من جزء تاريخ ابن النجار المحفوظ بدار الكتب الوطنية بباريس الكثير التصحيف « قال سمعتُ عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: كنت أحبو فأخذني أبي بيدي وعبر بي الجسر فمضى الى شارع [1] الرصافة ، فلما انتهينا اليه رأينا حباباً فيها السويق والسكر والماء المبرّد بالثلج ... فقلت يا أبه من معاوية ... فهذه حكاية عجيبة ظريفة » .

فهل يجوز في الحكم أن طفلاً يحبو ولا يستطيع المشي مستقلاً يأخذ أبوه بيديه ويعبر به الجسر ، وأنّ الطفل الحابي يسأل أباه مَن معاوية ؟ ويجيبه أبوه جواب رجل كبير لإنسان مدرك يفهم الحديث الناضج ؟ فلو جعل « أصبو » من صبا فلان يصبو أي مال الى الصبوة أي جهلة الصبيان لكان القول محتملاً ممكناً ، ثم إنه حذف من الأصل جملة « من قول أحمد رضي الله عنه » والأصل « فهذه حكاية عجيبة ظريفة (كذا) من قول أحمد رضي الله عنه » .

٥ — وجاء في « ص ٥٩ » من كتابه المذكور « وأنكر عليهم أبو العلاء المعرّي هذا الشذوذ فقال :

---

(١) لعله « جامع الرُصافة » وهو معدن الحنابلة يومئذ وكذلك محلة الرُصافة التي كانت مجاورة لمحلة مشهد الامام ابي حنيفة [الأعظمية الحالية] وزالت مع المحال الزائلة ثم استؤنفت العمارة فيها في هذا الزمان مثل كلية أهل البيت .

أرى جيل التصوف شرَّ جيل — فقُل لهمُ وأهونْ بالحلولِ
أقال الله حين عبدتموه — كلوا أكلَ البهائم وارقصوا لي ؟

وقلده في هذا الهجاء شداد بن ابراهيم الملقب بالطاهر الجزري فقال بلفظه ومعناه :

أيا جيل التصوُّف شرَّ جيل — لقد جئتم بأمرٍ مستحيل
أفي القرآن قال لكم إلهي : — كلوا مثل البهائم وارقصوا لي ؟

نقل الخبر الأول من معجم الأدباء لياقوت الحموي « ج ١ ص ١٧٥ » والخبر الثاني منه أيضاً « ج ٤ ص ٢٦١ » .

والصحيح أنَّ أبا العلاء المعرّي هو الذي قلد الطاهر الجزري ، لأنَّ الطاهر توفي سنة « ٤٠١ » كما جاء في معجم الأدباء وغيره ، ولأن أبا العلاء توفي سنة « ٤٤٩ » كما في كتب التاريخ التي تذكره ، ولأن الجزري أدرك الوزير أبا محمد المهلبي وزير معز الدولة ومدحه وهو قديم الوفاة ، ثم إنَّ « الطاهر الجزري » اسمه « سدّاد » بالسين المهملة لا بالشين المعجمة كما وهم ياقوت الحموي والباحث حبيب زيات وغيرهما ، ولكونه بالسين المهملة جعله الصفدي في باب السين المهملة من كتابه « الوافي بالوفيات » قال :

« السخاوي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد
سداد بن ابراهيم أبو النجيب الجزري الملقب بالطاهر شاعر ...
سديف بن ميمون المكي الشاعر مولى آل أبي لهب ... »(١)

وذكره ابن شاكر الكتبي في باب السين المهملة من فوات الوفيات قال « ج ١ ص ١٦٧ » :

« سحيم (٢) بن أبي الحسحاس ...
سداد بن ابراهيم أبو النجيب الجزري الملقب بالطاهر ... كانت وفاته في حدود الأربعمائة ...
سعد الله بن نصر الله بن سعيد ...

(١) الوافي بالوفيات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٦٤ ورقة ١١٦ » .
(٢) هو عبد بني الحسحاس لا ابن ابي الحسحاس .

وقال القائم على طبع الكتاب في الهامش ما هذا نصه « أبو النجيب الجزري هكذا ذكر هنا في النسختين وحقه أن يذكر في المعجمة » وقد وهم القائم على الطبع في تعليقه هذا ، وأصاب ابن شاكر في جعله في باب السين المهملة .

وأعيد طبع فوات الوفيات بمصر سنة « ١٩٥١ » باشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، « ج ١ ص ٣٤٠ » وقد صحفه هذا الرجل الجري، على التصحيف الى « شدّاد » وعلّق عليه قائلاً « كذا وقع هذا العلم وسط حرف السين المهملة وآثرنا بقاءه في موضعه من الأصول مع التنبيه على أنّ موضعه في حرف الشين وله ترجمة في معجم الأدباء » . ثم قال في فهرست الجزء الأول تعليقاً على « شداد » هذا « هكذا وقع هذا الاسم بين الأسماء المبدوءة بحرف السين المهملة » . فهو لم يزدْ على أنْ وقع في الوهم الذي وقع فيه طابع الوفيات قبله ولكنه احتقب الخطأ وحده ، وأري القارئ أنه لم يسبقه اليه أحد . وجاء في كتاب المجموع اللفيف « ورقة ٢١ » أن بيتي الطاهر الجزري هما :

أرى جيل التصوّف شرّ جيلٍ فقل لهمُ وأهونِ بالحلولِ
أقال الله حين عشقتموه : كلوا أكلَ البهائم وارقصوا لي ؟

وهكذا أورد في فوات الوفيات وذلك يعني أنها نُسبا الى أبي العلاء المعرّي تشنيعاً عليه أو انتزاعاً من الجزري .

(بغداد) مصطفى جواد

« يتبع »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(دهاليز) أم (كواليس) ؟

وهذه كلمة أخرى ولدتها الحياة النيابية فيما أحسب ، دائرة على الألسنة وتناولتها أقلام الكتاب ومجلت على صفحات الجرائد ، أريدُ بها : (كواليس) ، (من أسرار الكواليس) .

تساءلت عن معنى هذه العبارة وعما يريد بها قائلوها حين يطلقونها من أفواههم أو كاتبوها حين يثبتونها على الورق دون أن يحاولوا البحث عن فصحى ألذّ وقعاً على الأذن ، وأيسر لفظاً من الفم .

فأما (كواليس) والحقيقة (كوليس Coulisse) فهي افرنجية لم يكتف مقتبسوها من الأعجمية باستعمالها مفردة (كوليس) فتجاوزوا الى جمعها (كواليس) كأنما هي عربية الأصل .

و (Coulisse) بالافرنسية مشتقة من (Couler) وهذه من اللاتينية (Coulare) وتعني (filtrer) أي (رشح ، تسرّب) ومعناها الحقيقي كما جاء في معاجمهم : (مجرى ، حجزة ، جزء من المسرح خلفَ تزييناته وعلى طرفي صحن المسرح) ثم انتقلت عندهم مجازاً الى ألسنة الساسة والكتاب ليعبروا عما هو واجب كتمانه عن الشعب من أسرار السياسة (les coulisses de la politique).

فأنت ترى أن الـ (كوليس) ما هو في الحقيقة إلا (رواق) يُسترق فيه السمع أو تُتسقط فيه الأخبار للوقوف على سر مغلق أو خبر ملفق ، يتسابق للحصول عليه أرباب الصحف الحريصون على أن يقدموا لقرائهم كل ما هو طريف ظريف .

ولو جاز استعمال (كواليس) لوجب أن يقال (ما وراء الكواليس) بمعنى (ما وراء الأسرار) لا كما يقولون (من أسرار الكواليس) لئلا يكون المعنى (من أسرار الأسرار) وهو معنى غير مستقيم .

فلئن كان لا بد لأصدقائنا الكتبة من كلمة تقرب وزناً من (كواليس) وتطيب وقعاً على السمع مثلها، فلتكن (دهاليز). فـ (الدهليز) لغةً (ما بين الباب والدار، جمعه دهاليز) وفي هذا الشرح ما يراد به من كلمة (كواليس). فيقال (من أسرار الدهاليز) أي الأروقة - أروقة دور الحكومة أو الندوة النيابية - التي يتسرب منها استراقاً أو تسقطاً، بعض أسرار المناقشات العجيبة أو المشادات الغريبة مما لا يجوز اطلاع العامة عليه. وإلا فلا معنى لقولهم (من أسرار الكواليس) أي (من أسرار الأسرار) لأن (الكواليس) تتضمن (أسرار السياسة)، فمن الكياسة إذن أن تستعمل بعد الآن أسرار (الدهاليز) خصوصاً وهي (الحرز الحريز) تنطلق فيه الألسنة الذلقة دون وجل وتنحبس خارجه خوف التبعة من الزلل.

الكواكبي

« الرماح الردينية »

قرأت في الجزء الأول من المجلد الثلاثين من مجلة المجمع العلمي العربي كلمة الأستاذ خالد بن محمد الفرج عن الرماح الردينية. والأستاذ مصيب في قوله ان «ردينة» اسم مكان على الأرجح، ومحق في تفنيده الزعم القائل بأن «ردينة» كانت امرأة تثقف الرماح - فهذا أمر بعيد الاحتمال. والظاهر انه سبق الانتباه الى هذه النقطة بعينها فجعل بعضهم «ردينة» اسم رجل يثقف الرماح لا اسم امرأة[1]. وقد أدى الأستاذ خالد بن محمد الفرج خدمةً جليلة يشكر عليها بتعيينه أماكن نباتها.

غير أني أرجو أن يسمح لي الأستاذ بالتنبيه على نقطة ثانوية هي استشهاده ببيتي النابغة :

(١) معجم البلدان لياقوت - مادة ردينة.

أثيث نبته جعد ثراه   به عوذ المطافل والمتالي
يكشفن الآلاء مزبنات   بغاب «ردينة» السحم الطوال

والأستاذ يستدل على أن هذا مكان ذو مستنقعات وغاب نباته أسود كثيف طويل .

والقارئ يلاحظ أن صيغة النعت في « السحم الطوال » تدل على أن لفظ « غاب » هنا بمعنى القصب ذاته أي الرماح لا الغابات . ومعنى ذلك أن الباء هنا باء الاعتمال لا بمعنى « في » على المكانية . وعلى ذلك بطل الشاهد .

والذي يقرأ قصيدة النابغة يجد أن الشاعر يصف دياراً مهجورة قد سكنتها صوار من بقر الوحش وهي المقصودة بهذين البيتين . وقد انتبه ابن حبيب لهذا الأمر ففسر الغاب هنا على أنه كناية عن قرونها ــ أي قرون كغاب ردينة السحم الطوال . وأورد ياقوت (١) تفسير ابن حبيب كما يلي : « أراد أن العود هي التي تكشفها عن الشجر بقرونها ، يعني الأغصان ، ثم قال السحم وهي السود نعت للقرون » .

والظاهر أن ابن حبيب قرأ مزبِنات بالباء المكسورة من الزبن وهو الدفع ــ والقرن أداة الزبن . ولعل الشاعر أراد هنا حركة الرأس التي تلاحظ في الحيوانات . وربما كانت القراءة مزبَنات بفتح الباء بمعنى مدفوعات أي مطرّدات يتبعها الصيادون بالرماح الردينية السحم الطوال .

أما القراءة التي يجدها المطالع في طبعات ديوان النابغة ، وهي « مزيَّنات » بالياء المفتوحة (وأحياناً المكسورة) فلعلها أضعف للتكلف في تعليق الحال .

(لندن)   الدكتور وليد عرفات

---

(١) معجم البلدان لياقوت ــ مادة ردينة .